غاية المطلوب

فـــي

حديث القرآن الكريم

عن القـــلوب.

د / عبد الفتاح محمد أحمد خضر

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة .

الحمد لله رب العالمين مقلب القلوب وغفار الذنوب ، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد .

فالسعادة كل السعادة في استشعار التوفيق والقبول في نجاح عمل طالما انشرح له الصدروسكنت إليه النفس ، واطمئن به القلب.

هذا العمل هو موضوع بحثي الذي عنوانه :

"غاية المطلوب في حديث القرآن عن القلوب"

فقد كان مولده على منبر القبة المتوكلية بمسجد الإمام يحيى بميدان التحرير بصنعاء عاصمة اليمن ، وقت أن كنت ممثلاً للأزهر الشريف[١]، وخطبت عن القلوب عدة خطب وتشوقت نفسي أن أصوغها في كتاب ينتفع به المسلمون بعد إخراجه من حيز الخطابة إلى حيز التخصصية ، وإضفاء صبغة الأكاديمية عليه.

حاولت هذا عدة مرات في عدة سنوات حتى أذن الله أن يخرج هذا البحث فيرى النور بعد أن ظل حبيس فكري سنوات طوال .

وكما يردد الكثير من الناس فإننا على أبواب ألفية جديدة لها معطياتها ، وأفكارها وصبغتها التي اصطبغ بها إنسان هذا الزمان الذي أصبح في مجموعه قد ينكر ما لا يحسه .

---

(١) سنة ١٩٩٣م إلى ١٩٩٧م .

فإذا تحدثت عن الضمير ، أو الخواطر ، أو القلب ، أو الصدر ، أو المعاني الإيمانية ، كالبركة ، والإخلاص ، والنية الحسنة ، والمراقبة ، إذا تحدثت عن هذا قد يُنكر عليك حديثك.

والذي ينكره واحد من اثنين إما: جاهل لا يدرك ، وشب على ذلك ويردد دون علم " إن ربك ربُ قلوب " وهذا مسوغه لكل مالا يجوز ، يردده جهلاً بالرب سبحانه ، وأشد جهالة بالقلب الذي لا يدري إلا حروف لفظه. وإما متعالم باع سره للشيطان ، وقلبه للهوى ، وقالبه للمادة ، إذا تحدثت معه أو سمعك في حديث عن القلب ، وإصلاح الباطن والسر وإفراغه مما سوى الله سخر منك ، ووصفك بالتخلف ، والرجعية ، والكهنوتية ، لأن منطق المعاصرة ــ من وجهة نظره ــ هو المظاهر بكل ما تحمل من مضمون مما أدى إلى خواء روحي أثر في كل مناحي الحياة سلباً. لدرجة أنه أصبح يخاف من ملاحظة الكاميرا المثبتة في حوائط وأركان المتجر ــ مثلاً ــ فلا يسرق لا لشيء إلا لأنه علم أن الكاميرا ترمقه ، وعين البشر تراه ، ولا يدرى الغافل الذي حاله هكذا أن الله الذي يعلم السر وأخفي يعلم باطنه كما يعلم ظاهره فعلمه علم إحاطة وشمول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ العلق١٤ :-

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقلْ خلوتُ ولكن قل علي رقيبُ.

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب.

ولقد دارت في خلدي أسئلة توقفتُ عندها كثيراً طلباً للجواب مثل:-

* هل من المستساغ أن أحمل شيئا لا أدري عنه شيئاً ؟

هذا الشيء هو القلب.

* وهل من المعقول أن تحمل البشرية ـ كل البشرية ـ قلوباً ذكرها الله في قرآنه اثنتين وثلاثين ومائة مرة ما بين وصف ، وأمر، ونهي ... ورغم هذا لا تدري ما تحمل ؟

* أليس من العيب أن أحمل قلباً لا أدري صحته من مرضه ، ولا حياته من مماته ؟

* هل من المرتضى أن أقف موقف الغافل الذي لا يدري ما الفرق بين القلب عندما يذكره القرآن وينطق به الفم الشريف ، والقلب عند الأطباء وعلماء التشريح ؟

إن من الغفلة والتجوز أن يصل العلم إلى ما وصل إليه الآن ولا يُدرى أنه ربما يحمل واحد من الناس قلباً ـ هو حسياً ـ من القوة بمكان بحيث أنه لو صارع الأسد لصرعه في حين أن هذا الشخص القوي قلبه ميت ؛ لأنه خلا من لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

*** إن العلماء قد لفتوا أنظارنا إلى أهمية ومكانة القلب :**

فالإمام الحجة: أبو حامد الغزالي سبق غيره عندما لفت أنظارنا إلى أهمية القلوب وذلك بقوله عن القلب : " هو العالم بالله ، وهو المتقرب إلى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعي إلى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، وهو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله ، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقا بغير الله ، وهو المطالب ، وهو المخاطب ، وهو المعاتب ، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيفلح إذا زكاه ، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه ، وهو المطيع ـ بالحقيقة ـ لله تعالى ، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا جهل قلبه فهو بغيره أجهل.

وهو الذي ينشر على الجوارح من العبادات أنـــواره ، وهـــو العـــاصي المتمرد على الله تعالى ، والساري إلى الأعضاء من الفواحـــش آثـــاره ، وبإظلامه أو استنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه ، إذ كل إناء ينضح بما فيه "[٢].

والإمام القرطبي ــ رحمه الله ــ أورد قصة نُسبت إلى لقمان الحكيم تبين أطيب ما في الإنسان وأخبث ما فيه ، وهي أنه طُلب من لقمان أن يذبـــح شاة ويستخرج أطيب ما فيها ، وأن يذبح أخرى ويستخرج أخبث ما فيها.

فأخرج من الأولى أطيب ما فيها القلب واللسان.

وأخرج من الثانية أخبث ما فيها القلب واللسان.

ولما سُئل عن صنيعه الذي لم يتبدل ولم يتغير قال: ليس شـــيء أطيـــب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا " [٣].

ويؤكد الحكيم الترمذي ما قاله الغزالي والقرطبي بقوله:

" اعلم رحمك الله أنه ليس من خلق الله شيء أطيب من قلب طاب بنـــور التوحيد والمعرفة ، والإيمان ، ولا أطهر ، ولا أنظف ، ولا أنقـــى ، ولا أصفى ، ولا أوسع إذا طهره الله من الأنجاس ، وتولى إحياءه بنور الحـق وحفظه وحرسه ، وزاد فيه من الفوائد ، وهو قلـــب المؤمـــن ، وليـس لأنواره غاية ، وليس شيء أخبث منه ، ولا أنتن ، ولا أنجس إذا خذل الله صاحبه ، ولم يتول حفظه ، ووكله إلى الشيطان ، وهـــو قلـــب المنـــافق والكافر ؛ لأنه معدن الشرك ، والشك والنفاق ، والريب ، والمرض"[٤].

([١]) إحياء علوم الدين: ٣/٣ بتصرف.
([٢]) القرطبي : ٢١٨/١٤ بتصرف.
([٤]) أنظر بيان الفرق بين الصدر والقلب ص٥٥.

ومن خلال سياحة علمية طويلة الأمد جُبت خلالها جنبات القرآن العظيم، وقرأت قراءة متأنية لما كتبه سادتنا المفسرون وغيرهم لم أجد مَنْ أفــرد هذا الموضوع بالبحث التفسيرى المتخصص ــ هذا على حد علمي .

ولا أنكر أن العلماء الأمجاد قد كتبوا في هذا الموضوع ، وكانوا دليلـــي وتكأتي ــ حفظوا لنا الأصل فلهم علينا عظيم الفضل ــ وذلك من خـلال كتب عنونت نصاً بالقلوب ، وكتب تناولت هذا الموضوع من خلال بــاب من أبوابها.

فمثلاً: **أمراض القلوب لابن تيمية ، والقلوب للبيانوني ، وقوت القلــوب لأبى طالب المكي ، وأبواب من إحياء علوم الدين ، والزواجر للهيثمي ، وإغاثة اللهفان لابن القيم**... وهلم جرا.

كل هذا درسته ــ بفضل الله ــ دراسة متأنية ولكن مع تأكيدي على عدم إفراد موضوعى هذا بالتفسير الاستقصائي الموضوعي كما هو الحال هنا الأمر الذي حفزني أن أشمر عن ساعد الجد متوكلاً على ربي مستعيناً بــه سبحانه وتعالى في إخراج هذا البحث إلى حيز الوجود ليسد مكانـــاً فــي المكتبة القرآنية.

*** وكانت خطتي كالآتي :**

قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة :-

المبحث الأول: تعريف القلب ، والتفريق بينه وبين ما يقاسمه من الألفاظ.

المبحث الثانى: الصفات العامة للقلب.

المبحث الثالث: أقسام القلوب.

المبحث الرابع: سنة الله في أصحاب القلوب.

الخاتمة: تناولت أهم النقاط التي تناولها البحث .

• **هذا وكانت طريقتي في خدمة النص كالآتي:-**

١- أذكر الآية أو الآيات وأعزوها إلى أرقامها وسورها .

٢- أجمل تفسير النص.

٣- أبين سبب النزول إن كان له سبب.

٤- أسلط الضوء على المراد من النص من خلال تحليل لغوي سداهُ ولحمته المعاجم والقواميس اللغوية بصفة عامة والتي خدمت القرآن بصفة خاصة.

٥- أذكر اللطائف والدقائق ، والتأملات التي ترفع الملل عن القارئ وتمده بعظيم النفع ، حيث إنني **لا أحبذ الأكاديمية الجافة في الكتابة.**

٦- أختم كل نقطة بخلاصة موجزة.

٧- كما قمت بخدمة الأحاديث تخريجاً وتوثيقاً.

أسأل الله أن ينفعني بما كتبت ـ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ـ كذا القارئ والناظر لهذا الحديث.

كتبه

الفقير إلى الله عزوجل

أبو روضة وعمر

عبد الفتاح محمد أحمد خضر .

طنطا ـ حصة شبشير .

في ٢٠٠٠/١/١م

المبحث الأول

ماهية القلب والفرق بينه وبين :

الفؤاد ، والصدر ، واللب ، والعقل ، والنفس ، والروح .

قبل الشروع في معترك التفريق بين القلب وقسيمه من المسميات ، حري بنا أن نُعرّف القلب في اللغة ، والاصطلاح ؛ ليتسنى لنا الوقوف على معاني هذه الكلمة ، وبذا نفرق بينها وبين المسميات الأخرى ـ سالفة الذكر.

**** القلب لغةً :**

يرى علماء اللغة(*) أن أصل معنى مادة "قلب" يرجع إلى أصلين:-

***الأصل الأول :** ما يدل على خالص شيء وشريفه.

ومنه قلب النخلة: لبها ، والقلب: أجود خوص النخلة ، وأشده بياضاً.

وقلب النخلة: جمارها ، وقلب كل شيء لبه وخالصه ومحضه.

وجاء في وصف علي ـ كرم الله وجهه ـ كان علي قرشياً قلباً ، أي: خالصاً من صميم قريش.

***الأصل الثاني:** مصدر قلبت الشيء أقلبه قلباً إذا رددته على بداءته.

يُقال: قلب الأمور: إذا بحثها ونظر في عواقبها.

قال تعالى: ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ.. ﴾ التوبة٤٨.

**** والقلب اصطلاحاً :**

لما كان القلب مشتركاً بين أهل الطب من ناحية وأهل الشريعة من ناحية أخرى تحتم تعريفه عند الفريقين.

(*) معجم مقاييس اللغة: قلب ١٧/٥ ، واللسان : قلب ٣٧١٥/٥ ، والقاموس نفس المادة.

* **أما في اصطلاح الأطباء :** فهو عضلة صنوبرية الشكل موضوعة في الجانب الأيسر من الصدر ، هي أهم الأعضاء في الجسم تضخ الدم ، وتعمل دون توقف منذ الأسبوع الرابع لحياة الإنسان وحتى موته(١).

* **أما عند علماء الشريعة : فيقول العلامة الجمل:** "وحيث أطلق القلب في لسان الشرع فليس المراد به الجسم الصنوبرى الشكل ، فإنه للبهائم وللأموات ، بل المراد به معنى آخر يسمى بالقلب أيضا وهو:

"جسم لطيف قائم بالقلب اللحماني قيام العرض بمحله ، أو قيام الحرارة بالفحم ، وهذا القلب الذي يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف وهو حقيقة الإنسان ، وهو المخاطب والمطالب والمعاقب"(٢).

* **العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي :**

لعل الترابط الكلي واقع بين المعنيين اللغوي الذي دار على محورين:

الأول : أن خالص وشريف الشيء قلبه ، وهذا متحقق في الاصطلاح الطبي ، حيث إن الجسم كله تتوقف حياته على توقف نبضات القلب(٨)

---

(١) أنظر دائرة معارف القرن العشرين ٩٠٩/٧ وما بعدها.
وإتماما للفائدة في هذا الشأن تقول دائرة المعارف : "ووزن القلب لا يتجاوز ٢٥٠ جرام ؛ وينبض بمعدل ٧٠ ضربة في الدقيقة ، ومهمته توصيل الدم إلى شبكة من الشواين والأوردة والأوعية الشعرية لو وضعت طرفا لطرف في خط مستقيم لبلغ طولها أكثر من ستين ألف ميل ، قاعدته إلى أعلى معلقة بنياط في الجهة اليسرى من التجويف الصدري ، وبه تجويفان : يساري به الدم الأحمر ، ويميني به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية ، وبكل تجويف تجويفان فرعيان يفصل بينهما صمام ويسمى التجويف العلوي الأذين، والتجويف السفلي البطين (انظر دائرة معارف القرن العشرين ــ محمد فريد وجدي ٩٠٩/٧ بتصرف ــ دار المعرفة ــ الطبعة الثالثة ١٩٧١م.
(٢) انظر الفتوحات: ٢٧/١ ، والصاوي: ٩/١ ،وأصله في الإحياء: ٣/٣ ، والألوسي ١٣٢/١ ويزيدنا المحقق الألوسي الأمر وضوحا فيقول: هي ــ أي هذه اللطيفة ــ مهبط الأنوار الإلهية الصمدانية ، وبها يكون الإنسان إنسانا ، وبها يستعد لاكتساب الأوامر واجتناب الزواجر ، وهي خلاصة تولدت من الروح الألوسي: ١٣٤/١.
(٨) [illegible] عند من يجعل ضابط الموت: موت القلب وهناك من يجعل ضابط الموت توقف خلايا المخ ، وليس هذا مقام بسطه فليتدبر .

والذي شأنه كذلك يكون أشرف وأهم ما في البدن ، وهو أيضاً متحقق في المعنى الشرعي لأن بين اللطيفة الربانية والقلب اللحماني علاقة الحاليَّة والمحلية أو الحرارة بالفحم ، والقلب هو أشرف ما في البدن وهذه اللطيفة هي أشرف مافيه.

والثاني: المأخوذ من قلب الشيء ورده على بداءته ، والمعنى متحد بين اللغة والإصطلاح أيضاً ؛ لأن القلب بمعناه الطبي جعله الخالق ﷻ في تجويف الصدر مقلوباً (٩).

وبمعناه الشرعي يتقلب ويتحول بالخير والشر والإيمان والكفر ،وكما قيل: ما سُمي القلب إلا من تقلبه.

إذن فالمعنى في غاية الاتحاد والتعاضد في تعريف القلب لغة واصطلاحاً.

سبب تسمية القلب بهذا الاسم :-

* لكونه أمير البدن وعمدته ورئيسه.

* ولكونه أخلص شيء في الإنسان وأرفعه وأشرفه ، كما أسلفت.

وهو كما يقول **الألوسي** : "هدف سهام القهر واللطف ومظهر الجمال والجلال ، ولكونه يتقلب ويتحول ، فهو منشأ البسط والقبض ، ومبدأ المحو والصحو ، ومنبع الأخلاق المرضية ، والأحوال الردية ، وقلَّما تستقر على حال ، وتستمر على منوال ، فهي متقلبة في أمره ، ومتقلبة بقضاء الله وقدره.

قال الشاعر:

ما سُمي القلب إلا من تقلبه فاحذر على القلب من قلب وتحويل.

فتسمية الجسم المعروف قلباً ــ يضيف المحقق الألوسي ــ ليس إلا لتقلب هاتيك اللطيفة المشرقة عليه ؛ لأنه العضو الرئيس الذي هو منشأ الحرارة

(٩) دائرة معارف القرن العشرين ٩٠٩/٧ وما بعدها.

الغريزية الممدة للجسد كله ويُكنى بصلاحه وفساده عن صلاح هاتيك اللطيفة وفسادها ؛ لما بينهما من التعلق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى[١٠].

وسُمي قلباً ـ فوق ما تقدم ـ لأنه وُضع مقلوباً في موضعه يشهد لذلك علم الطب .

**** أهمية القلب:-**

يكتنز القلب أهميته العظمى من خلال وظيفته الرائدة في الجسم ويكفي أن الله عز وجل.. ذكره اثنتين وثلاثين ومائة مرة ، وهذا يكسبه أهمية ليست لغيره من الأعضاء.

فهو كما يقول ابن رجب :-

ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده ، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته ، وتنفيذ أوامره ، لا يخالفونه في شيء من ذلك فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة ، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة ، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم .

كما لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته ، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله ، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد ، وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب.[١١]

---

(١٠) انظر روح المعاني: ١٣٤/١، والقرطبي: ١١٧/١٤، فتح الباري: ١٠٥/١ وفتح المبدي ٨٣،٨٢/١، والفروق اللغوية ص ١٥٥، والكليات: ص ٧٠٣، والراغب: ص ٤١١، والقاموس القويم ١٣٠/٢.

(١١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٨٤.

**** طبقات القلب :**

للقلب طبقات سبع هي :

١- الصدر : وهو محل الإسلام ، ومحل الوسواس.

٢- ثم القلب : وهو محل الإيمان.

٣- ثم الشغاف : وهو محل محبة الحق.

٤- ثم الفؤاد : وهو محل رؤية الحق.

٥- ثم حبة القلب : وهو محل محبة الحق.

٦- ثم السويداء : وهو محل العلوم اللدنية.

٧- ثم مهجة القلب : وهي محل تجلي الصفات [١٢].

**** الفرق بين القلب وقسيمه من حيث المعنى .**

(١) القلب والعقل :

ذكر القرآن الكريم مادة العقل تسعاً وأربعين مرة ، كأن القرآن الكريم يريد أن يلفت الأفهام إلى أهمية العقل وسمو مكانته.

والعقل يعرفه اللغويون بأنه: القوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال: للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة.

وأصله : الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقال ، وعقل الدواء والبطن ، وعقلت المرأةُ شَعْرَها ، وعقل لسانه : كفه.

ومنه قيل للحصن معقل ، وجمعه مَعَاقِل.[١٣]

**** سبب تسميته :**

سُمي العقل بهذا الاسم ؛ لأنه يعقل النفس ، أي: يحبسها عن متابعة الهوى كما يمنع العقال الدابة من مرتعها مرعاها[١٤].

(١٢) انظر كليات أبي البقاء ص٧٠٤.

(١٣) انظر الراغب: ص ٢٤٢، الشهاب: ٢٩٤/١.

(١٤) انظر الفرق بين القلب والصدر للحكيم الترمذي ص ٧.

•• شرف العقل:

أفرط العلماء في ذكر شرف العقل ، ووضعوا فيه أحاديث لا أصل لها[١٥] والعقل له شرفه العظيم ومكانته السامية ، ومما يدل علـــى ذلـك كـثرة أسمائه.

فمن هذه الأسماء : الحلم ــ النهية ــ الحجر ــ واللب.

١- **الحلم** بالكسر: الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم .

قال تعالى ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون** ﴾ الطور ٣٢ .

وفي الحديث: (**ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى**)[١٦]

أي ذوو الألباب والعقول ، واحدها: حلم ــ بالكسر ــ وكأنه من الحلـــم: الأناة والتثبت في الأمور وذلك من شعار العقلاء[١٧].

٢-**النهية**: وهو العقل يكون واحدا وجمعا ، والنهية: العقل سميت بذلك ؛ لأنها تنهي عن القبيح وتدخل في المحاسن[١٨].

كما سبق في الحديث: (**ليليني منكم أولو الأحلام والنهى**)

أي العقول والألباب.

٣- **الحجر**: والحجر بالكسر العقل واللب سمي بذلك لإمســاكه ومنعــه وإحاطته بالتمييز ، قال تعالى: ﴿ **هل في ذلك قسم لذي حجر**﴾ الفجر٥.

أي إن في ذلك المذكور الذي أقسمنا مقسما به حقيقـــا بـــالتعظيم لـــدى العقلاء[١٩].

---

(١٥) وردت أحاديث في شرف العقل وفضله مثل: (ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل) قـال ابن تيميه: إنه كذب موضوع باتفاق. وقال العراقي : سنده ضعيف.
انظر الأحياء ٨٣/١، حلية الأولياء: ٣١٨/٧، كشف الخفا: ٢٣٦/١.
وحديث: (ما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله) قال العراقي : فيه كذاب ، وقـال ابن حجر: وأكثر كتاب العقل الذي صنف موضوعـــات .أنظـر تقريـب التـهذيب ص ٢٠٠، والمفردات للراغب: ص ٥٧٨ عن محققه ــ ط دار القلم الثانية ــ دمشق .

(١٦) أخرجه مسلم كتاب: الصلاة ، باب: تسوية الصفوف وإقامتها.

(١٧) لسان العرب: حلم. ٩٨٠/٢ .

(١٨) لسان العرب: نهي ٤٥٧٥/٦.

(١٩) كلمات القرآن للشيخ مخلوف ص ٤٩٩. واللسان: حجر ٧٨٣/٢.

٤- **الحجا:** العقل والفطنة والجمع أحجاء ، والحجا: ما يمنع الإنسان من الفساد ويحفظه من التعرض للهلاك .[٢٠]

*** علاقة القلب بالعقل:**

هل القلب هو العقل ؟ وإذا كانت الإجابة بالنفي فما هو مكان العقل ؟ القلب أم الدماغ ؟

هذا السؤال الذي حارت فيه العقول قديما وحديثا نحاول ــ قدر الاستطاعة ــ إلقاء الضوء عليه مستدلين على ما ننتصر له بإذن الله تعالى.

وقبل المشروع في الجواب أجمل القول جازما بأن الجوارح ــ وإن كانت تابعة للقلب ــ فقد يتأثر القلب بأعمالها للارتباط الوثيق الذي بين الظاهر والباطن.

ومن المدرك المسلم أن بين الدماغ والقلب رابطة معنوية ومراجعة سوية لا ينكرها من كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولكن معرفة حقيقة ذلك ــ كما يقول المحقق الألوسي ــ متعززة كما هي متعذرة في الإشارة إلى كنه ما هنالك على أرباب الحقائق وأصحاب الدقائق متعسرة ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، والعجز عن درك الإدراك إدراك[٢١].

---

(٢٠) اللسان: حجا ٧٩٢/٢.

(٢١) روح المعاني: ١٣٥/١.

*** أقوال العلماء في مكان العقل:**

افترق العلماء في هذا الشأن على رأيين : رأي قائل بأن العقل في القلب ، ورأي أخر يقول: إن العقل في الدماغ ، ولكل أدلته:

١- **العقل في القلب** : هذا ما ذهب إليه الأئمة: **النووي** ، **والمازرى** ([٢٢])، **والغزالى**[٢٣].

ومن المفسرين: **القرطبي** ([٢٤]) **والشهاب**.[٢٥] ،**والألوسي**[٢٦]ومن قبل **الرازي** وغيرهم [٢٧].

ولندع الإمام الرازي يتحدث وبطريقته المقنعة ليقرر أن:-

"طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو القلب ، والذي يدل على قولنا وجوه:-

(١) قوله ﷻ:﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ الحج٤٦.

وقوله تعالى ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾ الأعراف ١٧٩.

وقوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ... ﴾ ق٣٧ .

أي عقل ، فأطلق عليه اسم القلب لأنه معدنه .

(٢) أنه سبحانه وتعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب :

فقال سبحانه : ﴿**في قلوبهم مرض....** ﴾ البقرة ١٠ ، أي المنافقين .

وقال ﷻ ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ البقرة٧ .

([٢٢]) النووي على مسلم: ٢٩/١١٠

([٢٣]) الأحياء : ٣/ص ٤٠

([٢٤]) القرطبي: ١٨٩/١، ٧٧/١٢، ٥٥/١٣، ٢٣/١٧

([٢٥]) الشهاب: ٢٩٤/١

([٢٦]) روح المعاني : ١٦٨/١٧،

([٢٧]) مفاتيح الغيب: ١٦٧/٢٤، ١٦٨.

وقال ﷻ ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ البقرة ٨٨ ، وهو قول اليهود .

وقال ﷻ: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ التوبة٦٤.

وقال: ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ...﴾ الفتح ١١ .

وقال: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ المطففين ١٤ .

وقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ محمد ٢٤ .

وقال:﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ الحج٤٦

فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب ، فوجب أن يكون موضع العقل والفهم ــ أيضا ــ هو القلب.

(٣) أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب ؛ ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس في قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك ، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب.

وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب ؛ لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم .

(٤) أن القلب أول الأعضاء تكونا ، وآخرها موتا ، وقد ثبت ذلك بالتشريح [٢٨]

* هذا وقد احتج الفريق القائل بأن العقل في الدماغ بأمور:

(١) أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب .

(٢) أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب.

---

(٢٨) هذا رأى وإلا فقد ثبت أن القلب يتوقف فيموت الإنسان إكلينيكيا ولا زال المخ يؤدي وظيفته.

(٣) أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل.
(٤) أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل : إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس .
(٥) أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف ، والأعلى هو الأشرف ، وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ .

والجواب عن الأول :

لم لا يجوز أن يقال: الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب ، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة ، فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب .

وتحقيقه : أنا ندرك من أنفسنا أنا إذ عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه ، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك ، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ .

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأتى الأثر من القلب إلى الدماغ ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث : لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء .

وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته ، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال ــ أيضا ــ إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب ، أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل .

وعن الخامس : أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم ، والله أعلم.[٢٩].

---

(٢٩) انظر الفخر. ١٦٨/٢٤

*** والذي ترتاح إليه نفسي في هذه القضية :-**

أن العقل في القلب ، فنحن نعقل بقلوبنا ؟ ونفهم بقلوبنا ونجهل ــ أيضا ــ بقلوبنا.. ولا مانع أن يكون المخ ــ الذي هو في داخل الرأس وكذا الدماغ كله ــ لا مانع في كونهما مصدرين من مصادر إمداد القلب ، فالجسد كله شبكة مترابطة إذا اشتكى بعضه اشتكى كله .

أرجح ذلك لكفاية الأدلة القاضية على أننا نفهم بالقلب ونعقل به ، وكفى القرآن والسنة وأقوال المفسرين والنحاة والمتكلمين مقنعا للانتصار لهذا المنحى.

وهذا لا يقلل من وجاهة الآراء الأخرى ، فمن الزعم أن تجزم بحتمية رأي واحد في هذه القضية ، فالمهم أن نعقل ونعي مهما كان مكان التعقل والوعى.

*** اللب .**

عرفه الراغب بقوله: اللب: العقل الخالص من الشوائب.

وسمي بذلك: لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب واللب من الشيء .

وقيل اللب: ما زكى من العقل ، فكل لب عقل ، وليس كل عقل لبا.

ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية "بأولى الألباب" نحو قوله تعالى: ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ البقرة ٢٦٩.([٣])

([٣]) أنظر الراغب ص٤٤٦ .

*** الفرق بين العقل واللب :**

كما بين نور الشمس والسراج فكلاهما نور، وهذا شيء ظاهر ؛ لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان عقلهما ونورهما ، بل يتفاضل أحدهما على الآخر بزيادة خص هذا العقل بها مالم يبين ذلك في الآخر ، فما ظنك بمن خصه الله تعالى بمعرفته وأكرمه بلطائف بره ، وأفاض عليه بحار خيره ما لم يفض منها على غيره.

واللب لا يكون إلا لأهل الإيمان الذين هم من خاصة عباد الرحمن الذين أقبلوا إلى طاعة المولى ، وأعرضوا عن النفس والدنيا فألبسهم لباس التقوى ، وصرف عنهم أنواع البلاء فسماهم الله أولي الألباب ، وخصهم بالخطاب وعاتبهم بأنواع العتاب ومدحهم في كثير من الكتاب فقال تعالى:

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ المائدة ١٠٠ .

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ﴾ الطلاق ١٠ .

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ الرعد١٩ .

﴿ وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ص٢٩.

فقد مدح الله تعالى أولي الألباب ، وبين مراتبهم وسرائرهم مع ربهم وفضائلهم في فقههم ، وفهمهم ، وحلمهم حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم ؛ لأنه خصهم بنور اللب ما لم يفعل ذلك بغيرهم[٣١].

نخلص إلى أن اللب هو العقل الخالص من الشوائب وهو بهذا داخل القلب ولا نستعبد أن يكون هو خالص الفهم الكائن في القلب.

(٣١) انظر بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد: للحكيم الترمذي ص ٧٢، ٧٣.

*** الصدر.**

يطلق في اللغة على الجارحة :

قال تعالى :﴿ **قال رب اشرح لي صدري**﴾ طه٢٥ . وجمعه صدور .

قال تعالى : ﴿ **وحصل ما في الصدور** ﴾ العاديات١٠ .

ثم استعير لمقدم الشيء ، كصدر المجلس والكتاب والكلام.

قال بعض الحكماء: وحيثما ذكر الله تعالى القلب فإشارة إلى العقل ، والعلم ، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك ، وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها(٣٢).

*** الصدر والقلب:**

والصدر بالنسبة للقلب بمنزله بياض العين من العين ، وبمنزلة صحن الدار في الدار ، وبمنزله الصدفة من الؤلؤ.

وهو موضع الشفاء المعنوي ، ونور الإسلام وحفظ العلم المسموع ، وهو موضع دخول الغل والشهوات ، والمنى والحاجات ، وأنه يضيق أحيانا وينشرح أحيانا...

وإنما سمي الصدر صدرا: لأنه صدر القلب ، وأول مقامه ، كصدر النهار الذي هو أوله .

وأما القلب فهو المقام الثاني فيه ، وهو داخل الصدر ، وهو كسواد العين الذي هو داخل العين وهو البياض.

**** من صفات الصدر:**

أنه يبتلى بدخول الشيطان ووسوسته ؛ ليعلم الإنسان قليلا من خالص أمره، ويريه تمام فقره ، وتصديق ذلك قوله ﷻ :﴿ **وليبتلي الله ما في صدوركم** ﴾ آل عمران ١٥٤.يعني ـــ والله أعلم ـــ: بوسواس الشيطان والنفس.

(٣٢) الراغب: ٢٧٦. والكليات: ص ٧٠٤.

*** ومن صفاته أنه ينشرح ويضيق :**

والانشراح والضيق إنما يضاف إلى الصدر ولا يضاف إلى القلب :

قال ﷻ : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ الشرح١ .

وقال ﷻ :﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾الأنعام ١٢٥.

وقال ﷻ : ﴿ **فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾ الأعراف ٢ .

وقال ﷻ:﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك** ﴾ هود١٢.

وقال ﷻ: ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ الحجر ٩٧ .

وقال ﷻ: ﴿ **ويضيق صدري ولا ينطلق لساني ..** ﴾ الشعراء١٣ .

فأضاف الله تعالى في الآيات السابقة الشرح والضيق إلى الصدر مع ملاحظة أن ضيق صدر النبي ﷺ ، وصدر الكليم لا يكون من ناحية الوسواس ـ فالأنبياء معصومون كما هو معلوم لدى كل مسلم ـ ولكن صدورهم الشريفة قد تضيق من مكر واستهزاء المشركين وتكذيبهم.

ولا غاية لضيق الصدر إذا هو ضاق ، وصدر كل واحد يضيق على قدر جهله وغضبه ، وكذلك لا غاية لسعته إذا انشرح بهدى الله تعالى ، فإذا ضاق عن الحق اتسع للباطل ، وإذا ضاق عن الباطل اتسع للحق.

ألا ترى إلى ما ذكر الله ﷻ ممتنا على نبيه ﷺ :

﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾ الشرح١ .

فمن الله بشرح صدره بأنوار حق الإسلام حتى ضاق صدره عن وسع الباطل، وصدر المؤمن يضيق أحيانا من كثرة الوسواس ، والغم والشغل وتتابع الحوائج وبلوغ الحوادث ، وإصابة المصائب.

ويضيق أيضا: إذا سمع باطلا فلا يحمل قلبه ذلك ، لأن الله تعالى وسع صدره بنور الإسلام فهو على نور من ربه.

وأما صدر الكافر والمنافق فإنه امتلأ من ظلمات الكفر والشرك والشك ، واتسع لها فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام وضاق عن وسع نور الحق فيه.

قال الله ﷻ :﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ النحل ١٠٦.

وقال ﷻ: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾الأنعام ١٢٥.

فبين الله تعالى أن الصدر أذا امتلأ من ظلمات الكفر ضاق عن وسع أضدادها من الأنوار.

*** ومن صفات الصدر أيضا أنه موضع الغل والجناية :**

لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية في الصدر بالدخول ، وهو من جهة الإبتلاء.

قال ﷻ في وصف أهل الجنة:

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل .. ﴾ الأعراف ٤٣ .

حتى يدخلوا الجنة بلا غل .

وقلب المؤمن الحق محفوظ من الغل ؛ لأنه موضع الإيمان إلا أن الله تعالى أمر عباده أن يدعوه ، ويسألوه أن لا يجعل في قلوبهم غلا قال ﷻ:

﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ... ﴾ الحشر ١٠ .

وأحب ــ سبحانه ــ أن يدعوه ويخافوه ؛ ليطهر قلوبهم ولم يضمن لهم حفظ صدورهم من الوسواس ليعرفوا منة الله عليهم ، ويحفظ قلوبهم ليستغيثوا إليه من وسواس الصدور ليزدادوا عزا ، وشرفا بالله إذا طهر قلوبهم ومحصها ، ويزدادوا ذلا في أنفسهم.

قال ﷻ:﴿ويشف صدور قوم مؤمنين.ويذهب غيظ قلوبهم ﴾التوبة ١٤-١٥.

فبين الله تعالى أن الشفاء يكون للصدور التي هي موضع الغل .
وقال ﷻ: ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ يونس٥٧.
وقال ﷻ : ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه .. ﴾ غافر٥٦ .

* ومن صفاته : أنه موضع التعلم والتحفظ والاجتهاد ، فكل علم لا يوصل إليه إلا بالتعلم والتحفظ والإجتهاد والتكلف من جهه السمع والخبر قرآنا كان أو سنة أو غيرهما فإن موضعه الصدر ، ويجوز عليه حكم النسيان :

قال ﷻ :﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ العنكبوت٤٩.

* **ومن الصفات التي لا تكون في الصدر بل تضاف إلى القلب فحسب : العمى والبصر** ، قال تعالى:

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ الحج٤٦.

وكل ما تقدم محمول على جهة الظاهر من الأدلة ، أما من جهة مجاز اللغة وتعارف الناس فإنه ربما يعبر بلفظة الصدر عن القلب.

وقد يذكر الصدر صراحة ويعني به القلب.

فقال ﷻ :﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله .﴾ آل عمران٢٩
وقال ﷻ : ﴿ وما تخفي صدورهم أكبر .. ﴾ آل عمران ١١٨ .
وقال ﷻ : ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ النمل ٧٤.

فقد عني بذكر الصدر في كل هذه الآيات القلب.

والمراد هنا قلوب الكفار ؛ لأن صدورهم وقلوبهم صادة موصدة لخلوها عن نور الهدى[٣٢].

---

(٣٢) انظر تفصيل هذا في بيان الفرق بين القلب و الصدر ص٢٣، ٤٧، ٦٥.

ولعلنا من خلال هذه السياحة ــ الطويلة نسبيا ــ ندرك أن الصدر شيء والقلب شيء آخر ، وذلك باعتبار ظاهر الألفاظ والأدلة ، أما من حيث المجاز فإن الصدر هو القلب كما دللنا سالفا.

*** الفؤاد.**

الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أى: التوقد.

يقال: فأدت اللحم: شويته.

قال ﷻ : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ النجم١١ .

والفؤاد مفرد جمعه أفئدة.

قال ﷻ : ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ..** ﴾ إبراهيم ٣٧ .[٣٤]

ويقول صاحب القاموس:

والقلب: الفؤاد ، أو أخص منه ، والعقل ، ومحض كل شيء[٣٥]

ويعلق ابن منظور على حديث الصحيحين : " **أتاكم أهل اليمن هم أرق قلوبا وألين أفئدة** " بقوله: وصف القلوب بالرقة ، والأفئدة باللين ، وكأن القلوب أخص من الأفئدة في الاستعمال ، وكذلك قالوا: أصبت حبة القلب، وسويداء قلبه.

وقيل: القلوب والأفئدة قريبان من السواء ، وكرر ذكرهما لاختلاف اللفظين تأكيدا.

قال **الأزهرى**: ورأيت بعض العرب يسمي لحمة القلب كلها ــ شحمها وحجابها ــ قلبا وفؤادا ، قال: ولم أرهم يفرقون بينهما.

وقال ابن سيده : القلب الفؤاد[٣٦].

([٣٤]) انظر الراغب ص٣٨٦ ، والتفسير الموضوعي ٢١٠/٧ .
([٣٥]) القاموس: فأد .
([٣٦]) اللسان: فأد: ٣٣٣٤/٥.

والفخر كذلك يقف موقف المبين للرأي في القلب والفؤاد بإيجاز شديد ولا يزيد، فيقول : " ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد ، ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان[٣٧].

وبعض العلماء يجعل القلب هو الذي يحتوي الفؤاد ، فإن الإمام القرطبي يرى أن الفؤاد يحتوي القلب فيقول :

الفؤاد محل القلب ، والصدر والقلب محل العقل في قول الأكثرين ، والفؤاد محل القلب والصدر محل الفؤاد[٣٨].

ويرى الحكيم الترمذي فرقا لطيفا له نصيب من وصف قائله ، فيقول: "اسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب ، ومعناهما قريب كقرب معنى الاسمين: الرحمن الرحيم.

ومثل الفؤاد في القلب كمثل الحدقة في سواد العين ، وكمثل المسجد الحرام في داخل مكة ، وكمثل المخدع والخزانة في البيت ، وكمثل اللب في داخل اللوز[٣٩].

فالفؤاد موضع المعرفة ، وموضع الخواطر ، وموضع الرؤية ، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولا ، ثم القلب .

والفؤاد في وسط القلب كما إن القلب في وسط الصدر مثل اللؤلؤ في الصدف.

*** ومن الأمور التي فرق بها العلماء بين القلب والفؤاد :**

أن القلب يحتاج إلى الربط والتأييد ، أما الفؤاد فيحتاج إلى المعونة والمدد بالهداية.

---

(٣٧) الفخر: ١٦٧/٢٤
(٣٨) القرطبي: ١٨٩/١.
(٣٩) الحكيم الترمذي: ص٦٩.

قال ﷻ في أصحاب الكهف: ﴿ وربطنا على قلوبهم .. ﴾ الكهف١٤ .
وقال في حق أم موسى: ﴿ .. لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ القصص١٠.
أي بنور التوحيد ، وذلك أن القلب يعلم ، والعالم يحتاج إلى ربط التأييد حتى يطمئن بذكر الله تعالى.

أما الفؤاد: فإنه يرى ويعاين فيقع له الفراغة ، ولا يحتاج إلى الربط بل يحتاج إلى معونة المدد بالهداية ، قال تعالى:
﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به .. ﴾ القصص١٠ .
فوصف الفؤاد بالفراغة ، وفضله على القلب إذ كان القلب يحتاج إلى الربط ، والفؤاد يرى ويعاين ، والقلب يعلم وليس الخبر كالمعاينة(٤٠).

*** الروح وعلاقتها بالقلب :**

الروح : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت .
والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى.
والمعنى الثاني: هو اللطيفة العامة المدركة من الإنسان وهو ما أراده الله بقوله ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ الإسراء٨٥ .
وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته(٤١).
من هذه الحيثية نستطيع القول بأن القلب متصل بالروح اتصال السبب بالمسبب ، فانعدام الروح يساوي سلب حياة القلب.

(٤٠) الحكيم الترمذي : ص ٦٩.
(٤١) إحياء علوم الدين : ٣/ص ٤.

• النفس وصلتها بالروح والقلب :

النفس: ذات الشيء وحقيقته ، ثم قيل: للروح لأن نفس الحي به ، وللقلب: لأنه محل الروح أو متعلقه ، وللدم لأن قوامها به.

وللماء: لفرط حاجتها إليه ، وللرأي : في قولهم فلان يؤامر نفسه ؛ لأنه ينبعث عنها[٤٢].

قال الشهاب:

" وذهب كثير إلى أن النفس حقيقة في الروح وإطلاق النفس على الروح من قبيل ذكر المسبب وإرادة السبب أو من إطلاق اللازم على ملزومه ؛ لأن النفس: ذات الشيء وذات الحيوان بالقلب تتقوم لأن القلب: مبدأ الحياة ومحل الروح الحيواني ؛ ولذلك خلق وسط الصدر ؛ لأنه أحرز المواضع في البدن إذ العظام سور حصين له والعضلات حرس له[٤٣].

* وجمهور العلماء على أن النفس : الروح ، يقال: خرجت نفسه أى روحه[٤٤].

• والنفس تطلق على القلب مجازا.

قال تعالى في قصة عيسى عليه السلام : ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ المائدة ١١٦ ، يعني تعلم ما في قلبي .

وقال ﷻ:﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ البقرة ٢٣٥، أي قلوبكم .

---

(٤٢) البيضاوي على هامش الشهاب: ٤٩١/١.
(٤٣) نفس المصدر السابق.
(٤٤) الروح ــ د٠المسير: ص ٣٦ط المعارف.

وبعد .

فاسم القلب اسم جامع لكل مقامات الباطن ، وفي الباطن مواضع منها ماهو من خارج القلب ، ومنها ما هو من داخله.

فأشبه اسم القلب اسم العين ، إذا العين اسم يجمع ما بين الشفرين من البياض وما يحتويه ، والسواد وما يشتمل عليه كالحدقة ، والنور الذي في الحدقة ، وكل واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة ، ومعنى غير معنى صاحبه إلا أن بعضها معاون لبعض ، ومنافع بعضها متصلة ببعض ، وكل ما هو خارج فهو أساس الذي يليه من الداخل.

قال بعض السادات:

القلب: مقر الإيمان .

الصدر: محل الإسلام .

والفؤاد: مشرق المشاهدات.

واللب: مقام التوحيد الحقيقي (٤٥).

واختم بالمسك ، والمسك هو مقولة الإمام الغزالي ــ معلقا على هذه الأسامي " القلب ، اللب ، الفؤاد ، الروح ، النفس ، العقل " ــ لأضع نفسي في حيز مقدرتي الضعيفة ، وأسلم الأمر بعد اجتهاد وبحث لصاحبه العليم سبحانه .

أختم بقول حجة الإسلام:

"ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها" (٤٦).

والله الموفق للصواب.

(٤٥) الألوسي: ٩٨/٤.

(٤٦) الإحياء: ٣/٣.

المبحث الثاني .

الصفات العامة للقلب .

نتناول في هذا المبحث أهم الصفات العامة للقلب ، وهي:

(١) كثرة التقلب. (٢) التوحد والتفرد.

(٣) أنه لا مطلع عليه إلا الله وحده. (٤) مكان تلقي القرآن.

(٥) أداة الميل. (٦) أداة الكسب.

(٧) الممحص الممتحن. (٨) موضع التحسين والتقبيح.

(٩) مبدأ الكلام ومنشؤه. (١٠) محل نور البصيرة.

(١) كثرة التقلب .

من صفات القلوب كثرة التقلب والتلـون ، والتصـرف فـي الخواطـر والأحوال .

هذه حقيقة قررها القرآن العظيم ، كذا السنة المطهرة.

قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَـرُونَ .﴾ الأنفال٢٤ .

* ومعنى هذه الآية : أجيبوا دعاء رسول الله ﷺ إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، أي أنه تعـالى المتصرف في كل شيء ، يصرّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليـه صاحبها فيفسخ عزائمه ، ويغير مقاصده ، ويلهمه رشده ، أو يزيغ قلبـه عن الصراط السوي [١].

---

(١) صفوة التفاسير: ٥٠٠/١.

*** تفصيل القول في قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. ﴾**

يقول **الراغب**(٢): أصل الحول: تغير الشيء وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل: حال الشيء يحول حؤولاً ، واستحال تهيأ لأن يحول. وباعتبار الانفصال قيل: حال بيني وبينك كذا.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فإشارة إلى ما قيل في وصف يقلب القلوب ، وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده. لحكمة تقتضي ذلك.

وقيل على ذلك: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ .. ﴾ سبأ٥٤ .

فالآية تدور حول معنى التسليم لله ﷻ في كل شيء ، فلا يستطيع المرء أن يؤمن إلا بإذن الله ، ولا يكفر إلا بإذن الله ، قاله السدي(٣).

ولقد كان من دعائه ﷺ: " **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** "(٤) .

وكان ﷺ كثيراً ما يحلف قائلاً " **لا ومقلب القلوب** " (٥).

قال **ابن حجر**: والمراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها وأحوالها لا تقليب ذات القلب ، وفي الحديث دليل على أن أعمال القلب من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض بخلق الله تعالى(٦).

ولما كانت الحيلولة التي في الآية تعني التقلب الذي في الخبر وهما معاً يؤكدان كثرة التقلب والتحول في القلب ــ والكل من فعل الله ــ سأل النبي ﷺ ربه عدم المؤاخذة فيما لا يملك. فعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول :-

(٢) الراغب : ١٣٧.
(٣) القرطبي : ٣٩٠/٧.
(٤) الترمذي كتاب : القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٣٩٠/٤.
(٥) رواه البخاري كتاب القدر. باب: يحول بين المرء وقلبه ٤٣٥/١١.
(٦) فتح الباري : ٤٤٤/١١.

" اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" [٧].

هذا وقد وردت آيات كثيرة تدل على تقلب القلوب في الدنيا والآخرة ، قال ﷻ : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا... ﴾ الأحزاب١٠ ، وهذا يوم الأحزاب .

قال قتادة: فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت ، أو أن هذا محمول على المبالغة ، وذلك على إضمار "كاد".

والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته ، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة .[٨].

وقال ﷻ: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. ﴾ النازعات٦-٨ .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ أي : مضطربة. يُقال: وجف القلب وجيفاً. اضطرب من شدة الفزع. والوجيف: اضطراب القلب وقلقه من شدة الخوف[٩].

وقال تعالى عن المؤمنين المخلصين: ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ النور ٣٧ .

فتقلب القلوب في الآخرة سببه الخوف الشديد من الله ﷻ فلا يدري العبد أيؤخذ من ناحية اليمين أو من ناحية الشمال ، ولا يدرى من أي ناحية سيأخذ كتابه. وإلى أي مصير سيكون أإلى الجنة أو إلى النار والعياذ بالله؟ إذن فالتقلب بالخواطر وغيرها في الدنيا والآخرة من صفات القلب العامة.

---

(٧) أخرجه: الترمذي كتاب: النكاح، باب: ما جاء في التسوية بين الضرائر ٤٤٦/٣،
وأبو داود كتاب: النكاح، باب: القسم بين النساء ،
والنسائي كتاب: عشرة النساء، باب: ميل الرجل إلى بعض نسائه.

(٨) القرطبي: ١٤٥/١٤، والبحر: ٤٥٨/٨.

(٩) الألوسي ٢٧/٣٠.

(٢) التوحد والتفرد.

من أبرز الصفات العامة للقلب: أنه واحد لا يتعدد .

قال تعالى: ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل** ﴾ الأحزاب ٤ .

تنفي الآية الكريمة وجود قلبين في جوف واحد ، وتخصيص الرجل بالذكر في الآية ليس مقصودا لذاته بل المراد : ما جعل الله لأحد ، أو لذي قلب من الحيوان قلبين مطلقا. وجعل هنا بمعنى: خلق.

وخص الرجل بالذكر لحكم منها: كمال لوازم الحياة فيه ، فإذا لم يكن ذلك له فكيف بغيره من الإناث ، وأما الصبيان فمآلهم إلى الرجولة.

وأما مجيء الجار والمجرور " **في جوفه** " فللتأكيد والتصوير كقوله ﷻ : ﴿ **ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ الحج٤٦ .

فإذا صور السامع لنفسه جوفا يشتمل على قلبين كان أسرع للإنكار والنفي[١٠].

* **سبب النزول :**

روى أنه كان في بني فهر رجل يقال له **أبو معمر جميل بن معمر الفهري** ، وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع ، فقالت قريش ما حفظ هذا إلا وله قلبان.

وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ، فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم أبو معمر لقيه أبو سفيان ، وإحدى نعليه في رجله ، والأخرى معلقة بيده فقال له: ما حال الناس ؟

(١٠) الكشاف: ٤٩/٣٠٠، الشهاب: ٤٥٨/٧، زادة: ٥١/٤.

قال له: هزموا. قال: فما بال إحدى نعليك بيدك ؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، فعرفوا يومئذ كذبه فيما كان يدعيه "[١١].

إذ لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده.

* ولقد نفي الحق ـ جل وعلا ـ وجود قلبين لأحد نفيا بليغاً حيث أحاطه بما لا يسع العاقل إلا تكذيب المثبت ، وذلك من خلال هذا النفي :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ... ﴾ .

فالزوجية في المرأة غير الأمومة فيها ، فمقام المرأة يعني الاستخدام والاستفراش وغيره ، أما مقام الأمومة فيعني الإحسان وخفض الجناح ، ولا يصلح في الواقع ونفس الأمر الجمع بين الزوجية والأمومة من امرأة لرجل واحد .

وذلك تماماً بتمام في استحالة أن يجمع واحد بين البنوة الحقيقية الصلبية ، والبنوة من طريق الإدعاء والتبني .

فمن المستحيل الجمع بين أن يكون الإنسان أصيلاً غير أصيل ، ابن وليس بابن ؛ وبقدر التنافي والاستحالة في هذا المثال بقدر استحالة وجود قلبين أو أكثر من قلب ـ بصفة عامة ـ في جوف واحد.

* وقد حكى الشعراء القدامى في أشعارهم هذه الاستحالة :

قال أحدهم:

ما أنصفتني الحادثات رمينني   بمفارقين وليس لي قلبان .

وقال الآخر:

تملك بعض حبك كل قلبي   فإن ترد الزيادة هات قلباً .[١٢]

---

(١١) الواحدي : ص٢٦٤، والشهاب: ٤٥٩/٧.
(١٢) الشهاب: ٤٦٠/٧.

*** توحد القلب فضل من الله .**

من فضل الله علينا أن جعل لنا قلباً واحداً ؛ لأنه لو كان هناك أكثر من قلب في جوف واحد لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فيكون الثاني فضلة لا حاجة له.

وإما أن يفعل بأحدهما غير ما يفعل بالآخر فذلك يؤدي إلى التضاد في أفعال الشخص الواحد فيكون مثبتاً نافياً ، عالما ظاناً ، موقناً شاكاً ، كل ذلك في حال واحدة وهذا لا يصح ، ولما كان هذا لا يصح صح وثبت ما أراده الحكيم الخبير لنا.

* ولعل النفي في الآية المتقدمة الذي هو في أعلى درجات البلاغة ينفي بالضرورة وجود كفر وإيمان في قلب واحد ، هدى وضلال في ذات واحدة ومما يؤكد ذلك الطعن على المنافقين[١٣] الذين تقدم ذكرهم في أول السورة : ﴿ ... وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ الأحزاب١ ؛ لأن القلب واحد وهو للواحد سبحانه وتعالى.

(٣) أنه لا مُطّلع على القلب إلا الله وحده.

من صفات الخالق ــ جلا وعلا ــ : العلم . العلم الأزلي المحيط الشامل فهو سبحانه : ﴿ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ٣ .

هذه عقيدة المؤمن ،ولكن مما يسترعي الانتباه أن الله ــ تبارك وتعالى ــ خص أشياء بالعلم ، وذلك إما لخطرها وأهميتها ، وإما لدقتها ولطافتها وإما لاستحالة الإطلاع عليها بالذات المجردة أو حتى بتقنية العلم الحديث، ومن هذا الأخير القلب.

القلب الذي خُص بالعلم من الله وحده ، وبعد ذلك بمراحل تأتي الفراسة أو الفطنة وهما عطية وهبة ــ أيضاً ــ من الله .

(١٣) القرطبي : ١١٧/١٤، الألوسي : ١٤٥/٢١.

**** آيات خصت القلب بعلم الله وحده :**

قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ آل عمران ٢٩

وقال أيضاً: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ المائدة٧.

وقال أيضاً: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ البقرة ٢٠٤ .

وقوله ﷻ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا .... ﴾ النساء ٦٣ .

وقال ﷻ: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ التوبة ٦٤ .

وقال ﷻ: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ الأحزاب ٥١ .

*** إلقاء الضوء على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ... ﴾**

جاءت هذه الآية في معرض الحديث عن المنافقين وأوصافهم ، فحكت أن من أوصاف الناس وأنواعهم من يحلو كلامه فيأخذ بمجامعك قوله ، ولكن قلبه انطوى على حقد ومرارة لو اطلعت عليه لساءك حاله.

فهو بحسب ادعائه يقول: الله يعلم أن ما في قلبي موافق لما في لساني ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾، وفي قراءة ابن محيص والحسن ﴿يَشْهَدُ الله على ما في قلبه﴾ [١٤]، بفتح الياء والهاء ، ورفع لفظ الجلالة.

(١٤) مختصر في شواذ القرآن: ص٢٠، وانظر إتحاف فضلاء البشر: ١/٤٣٤.

* والمعنى على هذه القراءة : "يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال ، ودليل هذه القراءة قوله تعالى: ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون.... ﴾ المنافقون١ ، وقراءة الجماعة أبلغ في الذم لأنه قوي على نفسه "أي المنافق" التزام الكلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافه.
وفي قراءة أبي وابن مسعود(١٥) ﴿ويستشهد الله على ما في قلبه﴾ ، وهي حجة لقراءة الجماعة(١٦).

* وفي عين صنف المنافقين قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا .... أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا ﴾ النساء ٦٠-٦٣ .
فالآيات تظهر أن الله يعلم ما في قلوب المنافقين ، فهو سبحانه لا يخفى عليه خافية فلا يغني عنكم أيها المنافقون إبطانكم للكفر ، فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق وإلا أنزلت بكم ما نزل بالمجاهرين بالشرك انتقاما منكم (١٧).

* وفي نفس هذا الصنف من البشر " المنافقين " يفضح الله كيدهم الذي زعموا أنه لن يظهر لكونه في داخل قلوبهم.
قال تعالى: ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون .﴾ التوبة ٦٤ .

---

(١٥) مختصر في شواذ القرآن: ص٢٠.
(١٦) الفخر: ٢١٥/٢، والقرطبي: ١٥/٢، وأبو السعود ٢٤٧/١.
(١٧) الكشاف: ٥٣٧/١ ، والفخر: ١٦١/١.

قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلا من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبريل الرسول ﷺ بأسمائهم فقال عليه الصلاة والسلام:–

إن ناسا اجتمعوا على كيت وكيت فليقوموا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم ، فلم يقوموا .

فقال ﷺ بعد ذلك: **قم يا فلان ، ويا فلان** ، حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف ونستغفر. فقال: **الآن ؟ أنا كنت في أول الأمر أطيب نفسا بالشفاعة ، والله كان أسرع في الإجابة ، أخرجوا عني ، أخرجوا عني ،** فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية.

وقال الأصم: "إنهم الاثنى عشر الذين وقفوا للنبي ﷺ على العقبة ليفتكوا به"[١٨]

وكما أبان الله عما في قلوب أناس زعموا أنهم في مأمن من بصر الله وسمعه ، وهم المنافقون ، أظهر الله تعالى علمه بالخبر الكائن في قلوب المؤمنين .

قال ﷻ : **﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾** الأحزاب ٥١ .

روى البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها ؟ فلما نزلت ﴿ ترجي....الآية ﴾، قلت: **ما أرى ربك إلا يسارع في هواك**[١٩].

والآية تثبت للنبي ﷺ حقا في طلاق أو إمساك من شاء من أزواجه وتمنحه حق إيواء من عزل منهن ، وفي كل ذلك لا إثم ولا عتب ، هذا

(١٨) الفخر: ١٢٣/١٦.

(١٩) رواه البخاري كتاب: التفسير، باب: قوله: ﴿ترجي من تشاء منهن..﴾ ٤٢٦/٨ ، ومسلم كتاب: النكاح ، باب: جواز هبتها نوبتها لضرتها ٢٨٩/٥.

التخيير الذي خيره الله إياه أقرب إلى راحة قلوب أزواجه ، فلا يحزن ويرضين بصنيعه ؛ لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم.

﴿ والله يعلم ما في قلوبكم﴾ : خطاب له ﷺ ولأزواجه المطهرات على سبيل التغليب والمراد بما في القلوب عام يدخل فيه ما يكون في قلوبهن من الرضا بما دبر الله تعالى في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ ومقابل ذلك ، وما في قلبه الشريف من الميل إلى بعض دون بعض ، والكلام فيه حث على الاجتهاد في تحسين ما في القلوب.

ولعل اعتباره ﷺ في الخطاب لتطييب قلوبهن(٢٠).

* وفي شأن قلوب المؤمنين ، يقول الله ﷻ : **﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا .﴾** الفتح١٨ .

وقد أفرد الله تعالى القلب في الآية بالعلم ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ أي من الإخلاص ، والصدق ، و الإيمان ، وحب الدين ، والحرص عليه فيما بايعوا عليه المصطفى ﷺ وهذه الصفات هي المعول عليها ، وبمعرفة أن الله يعلمها يحافظ صاحبها على مرأى الله فيه وينمى ما فيه من صفات حميدة ويثمرها.

*** نكتة في الفاء:**

الفاء في ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ للتعقيب ، وعلم الله قبل الرضا ؛ لأنه علم ما في قلوبهم من الصدق فرضي عنهم فكيف يفهم التعقيب في العلم ؟

---

(٢٠) الألوسي: ٣٦/٢٢.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿ **فعلم ما في قلوبهم** ﴾ متعلـــق بقولـــه ﷺ ﴿ **إذ يبايعونك ..** ﴾ كما يقول القائل: "فرحت أمس إذ كلمت زيدا فقام إلي، أو إذ دخلت عليه فأكرمني ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيبا كذلك .

وهنا فعلم ما في قلوبهم من الصدق ، إشارة إلى أن الرضا لم يكن عنـــد المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التي كان معها علم الله بصدقهم(٢١).

مما تقدم نخلص إلى أنه رغم علم الله المحيط بكل شيء يظل القلـــب لـــه خصوصية القرآنية التي تفرده بعلم الله وتمنع بذلك غيره من معرفة مــــا فيه ؛ لتزيد من الاهتمام بصلاحه أليس تتوقف عليه السلامة في الآخرة ؟!

(٤) مكان تلقي الوحي .

معلوم لدى كل مسلم أن كتاب الله وصل إليه عن طريق واحـــدة : هـــي التلقي قال تعالى : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ النمل٦ .

فقد أعلم ربنا كلامه جبريل ، وعلم جبريل محمدا ﷺ ، وعلم النبـــي ﷺ صحابته ، ثم انتقل علم الصحابة بطريقة التلاوة إلى التابعين.

ففي حق أمين وحي السماء قال الله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا لجـبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديـه وهـدى وبشـرى للمؤمنين** ﴾ البقرة ٩٧ .

وقال أيضا : ﴿ **نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين .** ﴾ الشعراء ١٩٣-١٩٥ .

* والملاحظ في الآيتين السابقتين اجتماعهما على جملة ﴿ **على قلبـــك** ﴾ دون غيرها من عبارات كـــ " عليك ، أو إليك ، أو إلى قلبك " ، ولعـــل

---

(٢١) الفخر: ٩٥/٢٨.

النكتة في التعبير بـ "على " دونما سواها للإشارة إلى تمكنه وانصبابه ورسوخه ، فإن الشيء إذا صب من أعلى لأسفل رسخ وثبت [٢٢].

لأن القرآن مستعل على القلب إذ القلب سامع له ، ومطيع يمتثل ما يأمر به ، ويجتنب ما ينهي عنه ، ومن هنا كانت " على " أبلغ من " إلى " ؛ ولأن " إلى" تدل على الانتهاء فحسب ، " وعلى" تدل على الاستعلاء ، وما استعلى على الشيء يضمن الانتهاء إليه[٢٣].

أما تخصيص القلب بالذكر وكونه مكان تلقي القرآن والوعي له فلنكت بديعة ولأسرار ــ أقصى ما في الوسع ــ الاهتداء لبعضها.

من هذه النكث والأسرار: معرفة القرآن ، والتخلق بخلقه ، والتنور بأنواره ، والتحلي بحقائقه ، والتمكن من تفهيمه للغير.

وهذا كله لن يكون إلا بنزول القرآن على القلب دونما سواه.

يقول شيخ زادة : "القرآن كلام الله تعالى وصفته القائمة به كساه كسوة الألفاظ المركبة من الحروف العربية ، ونزله إلى جبريل وجعله أمينا عليه لئلا يتصرف في حقائقه ، ثم نزل به كما هو على قلب رسول الله ﷺ ليتعرفه ، ويتخلق بخلقه ، ويتنور بأنواره ، ويتحلى بحقائقه ، ففهمه وتمكن من تفهيمة لغيره ، فهو ﷺ مختص بهذه الرتبة العلية والكرامة السنية من سائر الأنبياء ، فإن كتبهم أنزلت عليهم بالألواح والصحائف جملة واحدة ، فهي منزلة على صورهم وظاهرهم لا على قلوبهم"[٢٤].

---

(٢٢) الصاوي : ٤٤/١.
(٢٣) البحر : ٥١٣/١.
(٢٤) زادة: ٤٧٩/٣. الشهاب: ٢٦/٧.

*** من نكات وأسرار نزول القرآن على القلب الشريف :**

كونه بلسان عربي مبين ــ كما يقول العلامة الزمخشري : " تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه ، وتُفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كُلّم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت وإن كُلّم بغير تلك اللغة ؟ وإن كان ماهراً بمعرفتها كان نظره أولاً في ألفاظها، ثم في معانيها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي"[٢٥].

ومن النكت: كون القلب موضع العقل والفهم والعلم وتلقي المعارف ، ومنها: كون القلب مكان الحفظ.

قال الزمخشري: " خص القرآن بالذكر لأجل أن الذي نزل عليه ثبت في قلبه حفظاً حتى أداه إلى أمته ، فلما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظاً جاز أن يقال نزله على قلبك ، وإن كان في الحقيقة نزل عليه لا على قلبه.

وأُسند التنزيل إلى جبريل ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . ﴾ من أجل مهمة التحفيظ[٢٦].

ومنها : كون القلب موضع التمييز والاختيار أما سائر الأعضاء فمسخرة له فالقلب سلطان الأعضاء ، فكل شيء وصل للقلب وصل لسائر

---

(٢٥)الكشاف: ١٢٨/٣.
(٢٦) الكشاف: ٢١٢/٣، والشهاب: ٢١٢/١.

الأعضاء ، وحيث نزل على قلبه فقد تمكن من سائر بدنه فلا يطرأ عليه بعد ذلك نسيانه.

ورد أنه ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالآية يريد أن يقرأها بلسانه قبل أن يتلوها جبريل عليه ظاهراً حتى أمر بعدم الاستعجال بالقراءة قال تعالى ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .﴾ القيامة ١٦ .(٢٧).

ومنها: أن القلب هو مكان تلقى الواردات ، وهو صحيفة البدن التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها ، وهو بيت الله.

لكل هذه الأسرار وغيرها خص القلب بنزول القرآن وحفظه.

(٥) أداة الميل في الإنسان .

من الصفات العامة للقلب أنه أداة الميل إلى الحق أو عنه.

قال تعالى في حق أمهات المؤمنين– رضوان الله عليهم – :

﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .﴾ التحريم ٤ .

***سبب النزول :** روي أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريته مارية **القبطية** فعاشرها في بيت حفصة ، فرجعت فوجدتها في بيتها ، فغارت غيرة شديدة ، وقالت: أدخلتها بيتي في غيلبي وعاشرتها على فراشي ؟ ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضيا لها : إني حرمتها علي ولا تخبري بذلك أحداً ، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ، وكانتا متصافيتين وأخبرتها بسر النبي ﷺ ، فغضب رسول الله ﷺ ،

(٢٧) الصاوي:١٥٠/٢ ، انظر فتح الباري ، والأحاديث كتاب : التفسير، باب: أن علينا جمعه وقرآنه٥٥٣/٨ .

وحلف ألا يدخل على نسائه شهرا وأعتزلهن ، فأنزل الله ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله ...** ﴾ التحريم١ [٢٨].

روى الطبري ــ بسند صحيح ــ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة العسل فدخل على عائشة فقالت: إني أجد منك ريحا، ثم دخل على حفصة فقالت: مثل ذلك ، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه فنزلت ﴿ **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله......الآية** ﴾ التحريم١ . [٢٩]

وسواء أكان تحريم مارية أم تحريم العسل هو السبب فالغاية أن النبي ﷺ استودع سره السيدة حفصة وأفشته للسيدة عائشة رضى الله عنها ، وعلى هذا جاء قوله تعالى﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ وهو التفات من ذكر القضية إلى موعظة من تعلقت بهما ، فهو استئناف خطاب وجهه الله تعالى إلى حفصة وعائشة ؛ لأن إنباء النبي ﷺ بعلمه بما أفشته حفصة القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها.

ــ وعدم إفشاء سره ﷺ والمحافظة على حقوق الزوجية.

ــ وصغت: مالت: أي مالت إلى الخير قلوبكما.

يقال: صغى يصغى صغيا ، ويصغو صغوا ــ بالياء والواو ــ ، وحقيقته : الميل الحسي ، يقال: صغى أي مال ، وأصغى: أمال ، ومنه أطلق أصغى بمعنى استمع ؛ لأن أصله: أمال سمعه أو أذنه ، ثم حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال.

(٢٨) أسباب النزول للواحدي : ص٣٢٥، ٣٢٩. وأسباب السيوطي : ص٣٠٥.
(٢٩) أسباب السيوطي : ص ٣٠٥.

*وفي الآية: حث على التوبة مما كان فيهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ حيث زاغت ومالت عن الحق قلوبهما لحبهما ما كره النبي ﷺ اجتناب أم ولده أو اجتناب العسل.

وقيل: مالت قلوبكما إلى التوبة .

وجواب الشرط محذوف للعلم به أي : إن تتوبا كان خيراً لكما إذ قد صغت قلوبكما حيث كان الصغو سابقاً [٣٠]

وهذه الآية تظهر مدار العتاب ، وأنه كان بسبب الميل ، الميل الذي كانت أداته القلب.

فالقلب دون سواه هو أداة الميل في الإنسان.

(٦) أداة الكسب .

من صفات القلب العامة أنه أداة الكسب والاعتقاد في الإنسان وعليه مدار المؤاخذة. قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .﴾ البقرة ٢٢٥ .

من فضل الله على المسلم أنه أبان له ما عليه مدارُ المؤاخذة في الآخرة وما تركنا هكذا ، بل فصل لنا الذي لا نُؤاخذ به.

ومن الأمور التي لا مؤاخذة فيها: اللغو وهو: الحلف من غير قصد كأن يقول المرء: والله لتأكلن ، والله لتشربن ونحو ذلك ، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها ـ في قوله ﷺ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أنزلت في قول الرجل: لا والله وبلى والله[٣١].

(٣٠) أنظر: التحرير والتنوير: ٣٥٦/٢٨، القرطبي: ١١٨/١٨ وأنظر القاموس : صغر.

(٣١) رواه البخاري كتاب: الإيمان باب: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ٤٦٤/١١.

أو أن يحلف على شئ يظن صدقه فيظهر خلافه ، فهو من باب الخطأ غير المتعمد ، ويمين اللغو يجرى مجرى اللغاء وهو صوت العصافير.

ورغم أن الله ﷻ بين أنه لا يؤاخذ العبد به إلا أنه من الأورع للمسلم أن يتركه لورود الوصف بالفلاح للمعرضين عنه فقال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون ٣ . وذلك في معرض حديث القرآن عن المفلحين ، إذن فالذي نؤاخذ عليه ما دون اللغو وهو كسب القلب وعقده وتصميمه وعزمه ، كما قال تعالى في آية المائدة ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ المائدة ٨٩ .

فالعقد: العزم والقصد ، والنية.

قال الشهاب: "كسبت قلوبكم" عزمت عليه ، إذ كسب القلب عزيمته ونيته، وفيه دليل لما عليه الجمهور من أن أفعال القلوب إذا استقرت يؤاخذ بها[٣٢].

وأما حديث النبي ﷺ: **(إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا)** [٣٣].

فمحمول على ما إذا لم يستقر فإنه لا يمكن الانفكاك عنه.

قال مجاهد: كل يمين عقدها القلب فهي كسب له[٣٤].

فالقلب هو أداة الكسب ، ومحل النية ووعاء الاعتقاد ، وعليه الثواب والعقاب ، وكل عمل جاء من النفس من غير قلب فإنه ليس بمعتبر في

---

(٣٢) الشهاب: ٥٢٨/٢.

(٣٣) أخرجه: البخاري كتاب العتق ، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ١٢٠/٥ .
ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر ٣٢٧/١ .
وأخرجه غيرهما .

(٣٤) البحر: ٤٤٤/٢.

حكم الآخرة ، وليس بمؤاخذ صاحبه إن كان معصية ولا مثاب إن كان طاعة بدليل الآية .

(٧) الممتحن الممحص.

من الصفات العامة للقلب أنه هو الممحص الممتحن في الإنسان.

قال ﷻ: ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور . ﴾ آل عمران ١٥٢-١٥٤.

من سنة الله في خلقه أنه يبتليهم بالفقر والغنى ، بالصحة والمرض ، بالعز والذل ، بالخير والشر ، وعليه تتباين مواقفهم فيشكرون أو يكفرون.
والآيات المتقدمة من سورة آل عمران نزلت في غزوة أحد التي شاء الله وقوع ما وقع فيها اختبارا وتمحيصا ، اختبارا لصبرهم وتمحيصا لسيئاتهم .[٣٥]

(٣٥) البحر: ٣٩٦/٣.

فقوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ يظهر أن المحص هو ما في القلب .

والمحصُ: التخليص والتنقية ، والتمحيص: الاختبار والابتلاء.

والممحص هنا: الاعتقاد ؛ لذا قال: ما في قلوبكم ، ولم يقل : صدوركم ، وقد شاع استعمال القلب مع ذلك ، فيقال: اعتقد بقلبه ولا تكاد تسمعهم يقولون : اعتقد بصدره ، أو آمن بصدره ، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ المجادلة ٢٢، وليس فيه كتب في صدورهم الإيمان.

نعم يذكر الصدر مع الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ... الآية ﴾ الزمر٢٢.

ومن هنا قال بعض السادات: القلب : مقر الإيمان ، والصدر: محل الإسلام ، والفؤاد: مشرق المشاهدة ، واللب : مقام التوحيد الحقيقي .

ولعل الآية على هذا تؤول إلى قولنا: ليبتلي إسلامكم وليمحص إيمانكم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . ﴾ أي : بما في القلوب التي في الصدور ، فهي من الضمائر الخفية ، ووصفت بذلك لتمكنها من الصدور ، جعلت كأنها مالكة لها ، " فذات " بمعنى صاحبة لا بمعنى ذات الشيء ونفسه ، وفي الآية تنبيه على أن الله ﷻ غني عن الابتلاء وإنما يبرز صورة الابتلاء لحكم يعلمها كتمييز المؤمنين أو إظهار حال المنافقين[٣٦].

فقوله ﷻ:﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾آل عمران ١٤١، تثبت تمحيص من الله للمؤمنين .

والآية الثانية : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تبين أن المُمَحَّص هو القلب لا غيره ، وذلك ــ أيضاً ــ ما جاء في سورة الحجرات:

(٣٦) الألوسي : ٩٨/٤.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الحجرات٣ .

ولما كان الامتحان هو الاختبار ، والله يعلم الأشياء أزلا حمل اللفظ على التمرين بعلاقة اللزوم أي : أنهم مَــرَّنَ الله تعــالى قلوبــهم للتقــوى ، أو المراد: ضرب الله تعالى قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجــل التقوى: أي التطهر، ويعلم أنهم متقون.

وعلى هذا فالامتحان هو الضرب بالمحن ، وهو استعارة مــن امتحــان الذهب وإذابته ليخلص إبريزه من خبيثه وينقى ، أو المــراد: أخلصــها للتقوى(٣٧).

فالاختبار هو سبب المعرفة ولكن في جناب الحق يكون لازمــة ، وهــو تحقق التقوى بالمران أو بالتكاليف الشاقة ، أو بغير ذلك مما يليــق بــالله تعالى.

ومن هنا تدرك أن المبتلى في الإنسان هو القلب دون غيره.

(٨) موضع التحسين والتقبيح.

من الصفات العامة للقلب أنه موضع ومكان التحسين والتقبيح في الإنسان قال ﷻ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْــرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْــرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ الحجرات ٧ .

هذه الآية الكريمة يخاطب فيها الحق ﷻ المؤمنيــن المخلصيــن قــائلاً: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي: بين أظهركم فعظموه ووقروه فإنه

(٣٧) الشهاب: ٧٣/٨، والألوسي : ١٣٦/٢٦.

أعلم بمصالح الحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم .[٣٨]

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ " لكن " هنا استدراكية من حيث المعنى. قال الزمخشري: فإن قلت: كيف موقع لكن وشرطيتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفياً وإثباتاً. قلت: هي مفقودة من حيث اللفظ حاصلة من حيث المعنى ؛ لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم فوقعت لكن في موضعها من الاستدراك ، وهذا مبني على تقدير أن يكون المخاطبون بقوله: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ ﴾ من اعتمد على نبأ الفاسق إلى العمل بمقتضاه.

ويكون المخاطبون بقوله: ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ ﴾ المؤمنين الكاملين الذين لم يعتمدوا على كل ما سمعوه[٣٩].

فالتزيين هنا التحسين وليس إلا في القلب كما نصت الآية الكريمة ، وكما أن القلب هو موضع التزين فهو ــ أيضاً ــ موضع التقبيح.

قال ﷻ : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً .﴾ الفتح ١١-١٢.

أخبر الله تعالى في هاتين الآيتين بالأمر قبل وقوعه ، وحدث ما أخبر به سبحانه.

(٣٨) ابن كثير: ٢٢٥/٤.
(٣٩) الكشاف: ٥٦٣/٣، والجمل: ٢٤٧/٧.

ذلك أن قبائل غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل قد نزلوا حول المدينة وبايعوا رسول الله ﷺ على الخروج معه إلى عمرة الحديبية فتخلف معظمهم ، وكانوا يومئذ لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، وأعدوا للمعذرة بعد رجوع النبي ﷺ أنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما يبيتوه في قلوبهم ، وفضح أمرهم من قبل أن يعتذروا فقال: سيقول .... وقد أمر الله نبيه أن يقول لهم إن الله يفعل ما يشاء فإن كان أراد بهم نفعا نفعهم وإن كان أراد بهم ضرا ضرهم ؛ لأن استغفاره ﷺ الله لهم لا يكره الله الذي أبطل اعتذارهم ــ بنص الآية ــ بحرف الإبطال "بل" كان الله بما تعملون خبيرا.

ثم تأتي الآية الثانية مفتتحة بـ "بل" ﴿ **بل ظننتم** ﴾ فهي بدل اشتمال من جملة "بل ... الأولى" أي: خبيرا بما عملتم ومنه ظنكم أن لن ينقلب الرسول ﷺ والمؤمنون من ذلك السفر إلى عشائرهم وذوى قرباهم أبدا ، لكنكم اعتقدتم أن الرسول ﷺ ومن معه سيقتلون وستستأصل شأفتهم، وتباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم أحد ، وزين لكم الشيطان والنفاق ذلك الظن الخبيث في قلوبكم.

والتزيين والتحسين هو كناية عن قبول ذلك.

وإنما جعل ذلك الظن مزينا في اعتقادهم لأنهم لم يفرضوا غيره من الاحتمال ، وهو أن يرجع الرسول ﷺ سالما ، وهكذا شأن العقول الواهية، والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصور التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في بادئ الأمر.

وإنما تلوح لها أول شيء لأنها الصورة المحبوبة ثم يعتريها التزيين في الفعل فتلهو عن فرض غيرها فلا تستعد لوقوعه ، ولذلك قيل: حبك الشيء يعمي ويصم.

فمكان تزين الشيطان هو القلب الذي انعقد على أمر واحد وحسن فيه وهو أمر إهلاكه ﷺ الذي منعهم من الذهاب معه حتى لا ينالـــهم مـــا سـينال محمداً ﷺ .(٤٠).

ولما تحدثنا عن مكان التزيين حري بنا أن تنســب فعـل الـــتزيين إلـــى صاحبه، ومن المواضع التي يصلح فيها نسبة التزيين إلى الرحمن وإلـــى الشيطان قوله ﷻ:﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.﴾آل عمران١٤.

فمن قائل: إن المزين هو الشيطان ؛ لأن الله فضل على هذه الشهوات مـا أعده للمتقين يوم القيامة.

ومن قائل: إن المزين هو الرحمن ﷻ لأن الكلام في طبيعة البشر وبيـان أن الله أنشأ الناس وفطرهم على حب هذه الرغائب والمشتهيات ، ومثــل هذا لا يجوز إسناده إلى الشيطان بحال وإنما يسند إليه الوسوسة وتزييـــن الأعمال القبيحة والخروج بهذه الشهوات عن الخط المستقيم الذي رســمه الإسلام عن طريق الإفراط أو التفريط ولذلك لم يسند إليه القرآن إلا هـذا التزيين للأعمال.

قال ﷻ : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الأنفال ٤٨ .

وقال أيضاً: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأنعام ٤٣ .

أما حقائق الأشياء وطبائعها فلا تنسب إلا إلى الخالق الحكيم ، قـال ﷻ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.﴾الكهف ٧.

وقال ﷻ : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ...﴾ الأنعام ١٠٨.

(٤٠) انظر: الوسيط : ٥/٩٩٢، ابن عاشور: ٢٦/١٦٠.

وهذا الذي رجحناه هو مقصود قول عمر بن الخطاب ﷺ : "اللهم لا صبر لنا على ما زينت لنا إلا بك"[٤١].

(٩) محل الكلام ومنشؤه .

من صفات القلب العامة أنه محل الكلام ومنشؤه .

قال ﷻ : ﴿... يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .﴾آل عمران ١٦٧.

وقال ﷻ : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الفتح ١١ .

تثبت الآيتان أن أصل الكلام في القلب ، وفي حال اتفاق اللسان مع القلب يكون الصدق ، وفي حال الاختلاف بين اللسان والقلب يكون الكذب والثنائية في الشخص الواحد ، وهو ما يسمى بالنفاق أو الكذب كخصلة من خصال المنافقين .

وآية سورة الفتح تبين أن الأعراب الذين هم حول المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية ثم قالوا للنبي ﷺ متلمسين العذر استغفر لنا مظهرين أنفسهم بمظهر المسيئين ، وهذا لم يكن من داخلهم ولا في اعتقادهم بل في اعتقادهم أنهم محسنون.

فالذي قالوه يغاير ما في قلوبهم فحجتهم داحضة حيث قالوا : ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ وهذا غير موافق للحق والحقيقة ، والحق والصواب أنهم خافوا على أنفسهم الهلاك الذي اعتقدوا حلوله بالنبيﷺ .

(٤١) أنظر : فيض الرحمن د. إبراهيم سلامة ١/ ٥٥.

وآية آل عمران ليست ببعيدة عن آية الفتح حيث يقول الله ﷻ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران ١٦٧ .

هذه الآية نزلت ضمن آيات تحدثت عن غزوة أحد وما حل بالمسلمين فالمنافقون قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا فكان جوابهم : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. ثم يحكم الله عليهم بقوله ﷻ : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم يضمرون خلاف ما يظهرون ، لا توافق قلوبهم ألسنتهم.

وإضافة القول إلى الأفواه رغم أن القول لا يكون إلا بها من باب التأكيد والتصوير .

التأكيد على حد: ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ الأنعام ٣٨ .

والتصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود في أفواههم فقط .[٤٢].

وفي ذكر الأفواه والقلوب: تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم حيث أثبتوا أمرين ليس في قلوبهم شيء منهما:-

أحدهما: عدم العلم بالقتال.

والآخر : الاتباع على تقدير العلم به ، وقد كذبوا فيها كذباً بيناً حيث كانوا عالمين مصرين على ذلك الانخذال عازمين على الارتداد .

فالقول الملفوظ نفي منشؤه الذي لا ينفك عنه القول أصلاً وهو القلب[٤٣].

---

(٤٢) الشهاب ١٥٨/٣.
(٤٣) روح المعاني ١١٩/٤.

ولله در القائل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا .

إذن فأصل الكلام ومبدؤه هو القلب ، فإذا صدق اللسان مع ما في القلب كان الإيمان ، وإذا اختلفا يكون النفاق والعياذ بالله.

(١٠) محل نور البصيرة .

من الصفات العامة للقلب أنه محل نور البصيرة ، فكما أن نور العين هو الإبصار الذي به يدرك الرائي المرئي فإن البصيرة نور القلب وهي اللطيفة التي بها يرى المؤمن ويستبصر الأمور ، فكأن العين والقلب جوهران لطيفان خلق الله تعالى فيها آلتين للإبصار والاستبصار(٤٤).

فالبصيرة نور الإيمان في القلب ، والقلب معدن نور الإيمان ، قال ﷻ : ﴿ **أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ** ﴾ المجادلة ٢٢ .

وقال ﷻ:﴿**وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ الحجرات ٧

وقال ﷻ : ﴿ **إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** ﴾ النحل ١٠٦ .

فاللهم نوّر بصائرنا بنورك ، واهدنا إلى الصراط المستقيم .

وبعد :

فهذا أبرز ما هداني الله إليه من صفات عامة لهذا الملك المطاع في الجسد ألا وهو القلب ، ولما كان القلب من عجائب صنع الله ﷻ فإن المتأمل في صفاته لن يعدم فوائده ونفائسه ؛ لأن القلب لا تنقضي عجائبه أليس هو وعاء القرآن الكريم .

---

(٤٤) الفخر: ٥٩/٢.

المبحث الثالث.

أقسام القلوب.

تنقسم القلوب باعتبار تناول القرآن الكريم لها إلى ثلاثة أقسام رئيسة[1]:

القسم الأول: القلوب السليمة.

وصفاتها متعددة منها:

١- الاطمئنان. ٢- الوجل. ٣- السكينة. ٤- الرأفة.

٥- الخيرية. ٦- الطهر. ٧-الإخبات. ٨- الخشوع.

٩- الإيمان. ١٠- التآلف. ١١- التقوى. ١٢- الإنابة.

١٣- الاهتداء. ١٤- القوة. ١٥- الليونة. ١٦- الفقه.

---

(١) لا تعارض بين هذا التقسيم وبين تقسيم الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان الذي يقول فيه: "القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما" رواه ابن أبي الدنيا موقوف على حذيفة. أنظر الدر المنثور ٨٧/١

ومعنى القلب الأجرد: أي الأجرد مما سوى الله وسراجه مصباح الإيمان.

٢- والأغلف: قلب الكافر قال تعالى حاكيا عن اليهود ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ البقرة ٨٨، فهو داخل في غلافه فهو عليه غشاوة.

٣- والمنكوس: أي المكبوب، كما قال الله تعالى ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم﴾ النساء ٨٨ أي: نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه.

٤- والقلب الذي له مادتان: هو القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه، فتارة يكون الكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون الإيمان أقرب منه للكفر.

انظر في ذلك إغاثة اللهفان ص١٦ بتصرف.

وأقول: لا تعارض بين التقسيم الذي في أعلا الصحائف وهذا التقسيم لأن الثلاثة هي الأربعة فالسلامة تساوى الأجرد، والمرض يساوى الدوران بين مادتي الإيمان والكفر، والموت يساوى الأغلف والمنكوس، فليتدبر.

أما القسم الثاني : القلوب المريضة .

ومظاهر هذه الأمراض كائنة في هذه الصور:

١- الكفر ٢- النفاق ٣- القسوة. ٤- العمى.

٥- الغل. ٦- الريب. ٧- الغلظة ٨- الغفلة.

٩- الشتات. ١٠- الإنكار ١١- اللهو ١٢- الغمرة.

١٣- التأبي على الحق. ١٤- الاشمئزاز. ١٥- الحمية. ١٦- الإثم.

أما القسم الثالث : فالقلوب الميتة .

وهي القلوب التي أهملت حتى تمكنت الأمراض منها ففتكت بها حتى أسلمتها إلى الموت والفناء رغم حياة صاحبها حسياً.

ودونك التفصيل .

أولا: القسم الأول .

القلوب السليمة المقبولة .

وقبل الشروع في المقصود أحب أن أبين أن قلب النبي محمد ﷺ تسنم هذا القسم من أقسام القلوب ؛ لما رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود: "**إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد**" (٢).

ولنبدأ بدعاء خليل الرحمن في القرآن الكريم ، فنقول كان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي كان يدعو ربه أن يسلم قلبه ولا يسلمه إلا له ﷻ .

قال عز من قائل على لسان خليل الرحمن : ﴿ **ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون .إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾الشعراء ٨٧-٨٩.

وقد حقق الله له ذلك فقال سبحانه: ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم .** ﴾ الصافات ٨٣-٨٤ .

والسلم، والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة ، وذلك كما جاء في شأن الخليل عليه السلام فقد تعرى من الدغل الباطني ، وأما التعري من الآفات الظاهرة فمثاله قوله تعالى في شأن بقرة بني إسرائيل ﴿ **مسلمة لا شية فيها..** ﴾ البقرة ٧١ .

والسلامة الحقيقية ليست إلا في الجنة إذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم كما قال ﷻ :﴿ **لهم دار السلام عند ربهم ..** ﴾ الأنعام ١٢٧ ، أي السلامة.

---

(٢) رواه أحمد ٣٧٩/١.

والسلام: اسم من أسماء الله تعالى قال ﷻ : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الحشر ٢٣ .

وُصف الله تعالى بذلك لأنه لا يلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق.

والسُّلَّم: ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ، ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شئ رفيع كالسبب(٣).

هذه إطلالة معجمية سريعة على مادة سلم أما الآية الكريمة فلنا معها وقفة تحليلية نجتلي من خلالها معان ومعارف لا غنى عنها.

فقد جاءت هذه الآية ضمن دعاء طويل لخليل الرحمن كان آخره : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء ٨٧-٨٩.

أي : ولا تذلني ولا تهني يوم تبعث الخلائق للحساب ، وهذا من باب هضم النفس وإلا فالله ﷻ قال في حقه:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ﴾ النحل ١٢٠-١٢٢.

ولا تخزني يوم يبعثون : يوم لا ينفع أحداً فيه مال ولا ولد إلا من جاء ربه في الآخرة بقلب طاهر زكي.

إلا: استثناء ، قيل: إنه متصل وقيل: إنه منقطع.

فمن فسره بالانقطاع : كانت " إلا "معناها "لكن" وعليه فهو استثناء من الفاعل وهو المال والبنون ومَنْ أتى الله بقلب سليم غيرهما.

وبعضهم جعله متصلاً وجعله استثناء من المفعول الذي يمكن تقديره "بأحد" .

---

(٣) أنظر الراغب ٢٣٩:٢٤١، وأنظر البصائر: ٢٥٢/٣.

و"مَنْ" في محل نصب أي : يوم لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه البر والخيرات ، ولا بنون وإن كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم عن مرض الكفر والنفاق فضرورة نفع كل منهما بالإيمان.

وقيل: هو استثناء مما دل عليه المال والبنون دلالة الخاص على العام أعني مطلق الغنى والكلام بتقدير مضاف ــ أيضاً ــ كأنه قيل: يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم وغناه سلامة قلبه ، وهو الغنى الديني كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه(٤).

فسليم إما بمعنى فاعل: أي سالم وخالص ، أو بمعنى مفعول ، أي بقلب أخلصه الله من الشرك والشك أو من التعلق بغيره ﷻ.(٥)

والمأثور عن ابن عباس ﷺ وغيره : أن القلب السليم : هو السليم عن مرض الكفر والنفاق.

وقيل: السالم من الآفات والمكروهات كلها ، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وما يحبه ، وخشية ما يباعد عنه (٦).

وقيل: هو الخالي من العقائد الفاسدة والميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها .

وقال سفيان: هو الذي ليس فيه غير الله ﷻ .

وقيل: هو الذي سلم من الشرك والمعاصي وسلّم نفسه لحكم الله تعالى ، وسالَم أولياءه وحارب أعداءه ، وأسلم حيث نظر فعرف واستسلم وانقاد لله ﷻ وأذعن لعبادته ﷻ .(٧).

(٤) الألوسي: ١٠١/١٩.
(٥) زاده ١٥٨/٤ .
(٦) ابن رجب: ص ٢٨٦.
(٧) الألوسي ١٠١/١٩ .

وقال القرطبي : السليم من الشك والشرك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قال الأصوليون: المراد بسلامة قلب إبراهيم عليه السلام : أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي ، فدخل فيه كونه سليما من الشرك والشك ومن الغل والغش والحقد والحسد(٨).

*** استشكال وحله :**

إن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد.

وجوابه: أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب .(٩)

ولقد جاء الحديث الصحيح الذي وصف بأنه رابع أربعة من الأحاديث التي تدور عليها الأحكام:

قالوا: عمدة الدين عندنا كلمات   مسندات من قول خير البرية.

أترك المشبهات وازهد ودع ما   ليس يعنيك واعملن بنية (١٠).

جاء الحديث وهو قوله ﷺ " ... **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**" (١١).

يقول القرطبي في أثناء تعليله لدوران الأحكام الشرعية على الأحاديث الأربعة ومنها حديث " **ألا وإن في الجسد مضغة...**" قال: لأنه اشتمل

---

(٨) الفخر ١٤٦/٥٦.
(٩) الفخر ١٥٠/٢٤ .
(١٠) فتح الباري ١٠٥/١.
(١١) رواه البخاري كتاب : الإيمان ، باب : فضل من استبرأ لدينه ، فتح ١٠٥/١ ؛ ومسلم كتاب : المساقاة والمزارعة ، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات ٢٧/١١.

على التفصيل بين الحلال وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب فمن هنا يمكن أن تُرد جميع الأحكام إليه [١٢].

قال النووي : بين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيه وفي الحديث التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد فالقلب السليم ــ كما يقول ابن القيم ــ هو : الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير الله ، فسلم في محبة الله ، مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه ، والتوكل عليه والإنابة إليه ، والذل له وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد عن سخطه بكل طريق ، وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله ﷻ إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاءً ، وخلص عمله لله ، فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمان والاقتداء به وحده دون كل أحد .[١٣]

من خلال ما تقدم : هو القلب المرتضى عند الله وله أوصاف متعددة نقوم بتوفيق الله ﷻ بجمعها والطواف حولها من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال المفسرين ، وهاك التفصيل.

(١٢) فتح الباري ١٠٥/١.
(١٣) أنظر : إغاثة اللهفان ص١١-١٢ .

** سرد صفات القلوب السليمة ، وهي كالآتي :-

(١) الاطمئنان .

وردت آيات متعددة تحمل وصف الاطمئنان لقلوب المؤمنين [١٤] ، من هذه الآيات قوله ﷻ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...** ﴾ الآية البقرة ٢٦٠ .

والمعنى : أذكر حين طلب إبراهيم من ربه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿ **قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...** ﴾ أي : أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء، قال: بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب ، برؤية ذلك فكان ما كان من أمر الله عز وجل[١٥].

والطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج[١٦].

يقول القرطبي ــ رحمه الله تعالى ــ الطمأنينة : اعتدال وسكون. فطمأنينة الأعضاء معروفة ، وطمأنينة القلب هي: أن يسكن فكره في الشيء المعتقد.

فاليقين في شأن خليل الرحمن موجود كائن ولكنه ﷺ يريد سكون قلبه بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان بأن الله قادر على ذلك.

إذن فالقلب المطمئن هو الذي امتلأ سكوناً وهيبة من عظمة الله ﷻ .

قال ﷻ : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .** ﴾ الرعد ٢٨.[١٧]

فبمعرفة الله والإكثار من عبادته يكتسب القلب سكونه.

---

(١٤) البقرة ٢٦٠. آل عمران ١٢٦، المائدة : ١١٣، الأنفال: ١٠،الرعد ٢٨ والنحل ١٠٦.
(١٥) صفوة التفاسير ١٦٦/١.
(١٦) الراغب ٣٠٧.
(١٧) انظر القرطبي ٣٠٠/٣.

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالي : " الطاعات تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر.[١٨] واستشهدوا بالآية السابقة .

(٢) الوجل.

وردت صفة الوجل في آيات كثيرة من القرآن العظيم[١٩] منها قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الأنفال ٢ .

هذه الآية التي تثبت صفة معاكسة للصفة الأولى "الاطمئنان" رغم اتحاد الوصف بهما لقلوب المؤمنين.

فما الوجل ؟ وما بواعثه ؟ وما أقسامه ؟

الوجل: استشعار الخوف ، يقال: وَجِلَ يَوْجَل وَجَلاً فهو وَجِل[٢٠]

الباعث على الخوف :

أقول إما رهبة الناس وخشيتهم ، وإما رهبة رب الناس وملكهم .

فإن كان الباعث على الخوف هو خوف العباد فهو خوف مذموم.

وإن كان الباعث على ذلك هو الخوف من رب الناس تهيُّباً من جلاله ، وعزه وسلطانه وبطشه بالعصاة فهو الخوف المرتضى المحمود.

يقول الشيخ زادة تعليقاً على آية الأنفال :-

﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : الوجل هو الخوف والفزع وهو ههنا متفرع على مجرد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله ، فإن هذا الخوف لا يزول

(١٨) الإحياء ٣/١٢ قال بعض السلف دواء القلب في خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين" البيانوني ص١٤١ .
(١٩) الأنفال ٢- المؤمنون: ٦٠ ، الأحزاب ١٠، غافر ١٨، النازعات ٨.
(٢٠) المفردات ٥١٣.

عن قلب من ذكر الله تعالى عالماً بنعوت جلاله وصفات كماله ، سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلاً أم مؤمناً تقياً.

فإن كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغنائه عن جميع ما سواه ويعلم احتياجه إليه في جميع مهماته ، فلا جَرَمَ يهابه ويقشعر جلده ، وتغلب عليه الدهشة بحيث يكاد يفنى وجوده" (٢١).

وقد شبه الوجل في القلب باحتراق السَّعَفَة ، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة ؟ قال: بلى: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله ، فإن الدعاء يُذهب بذلك (٢٢).

وقال سفيان الثوري سمعت السدي يقول في الوجل ـ بالكسر ـ : هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال يهم بمعصية فيُقال له اتق الله فيجل قلبه"(٢٣).

فالمؤمن الوجل هو المؤمن حقا كما قال ـ عز من قائل ـ ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ الزمر ٢٣.

وكما قال ﷻ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾ المؤمنون ٥٧.

والخوف من الله ينقسم إلى قسمين :-

الخوف من عقابه سبحانه وهذا للعصاة ، والخوف من عظمته وجلاله ﷻ وهذا لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلاً ، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من

(٢١) زادة ٢/٢٩٥ .
(٢٢) الطبري ٩/٢٣٨و وابن كثير: ٢/٢٩٧ والدر المنثور: ٣/١٧٦.
(٢٣) ابن كثير ٢/٢٩٧ ، والدر ٣/١٧٦ .

الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه ، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة ، وذلك الخوف(٢٤).

*** الخطوات الموصلة إلى الوجل :-**

وفي سورة " المؤمنون" يبين الحق تبارك وتعالى الخطوات الموصلة إلى الوجل فيقول عز من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ المؤمنون ٥٧-٦١ .

فالخطوة الأولى: الإشفاق من جلال الله وعظمته والخوف من عذابه. وذلك قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . ﴾

ومثله ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ الأنبياء ٩٠ .

أما الثانية: التصديق بآيات الله القرآنية والكونية فكلها براهين على وجود الله ﷻ ينطق بذلك قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. ﴾.

أما الثالثة: عدم الإشراك بالله تعالى والمراد نفي الشرك بعامة ونفي الشرك الخفي بصفة خاصة ، وذلك بالإخلاص في عبادة الله طلباً لرضوانه ينطق بذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . ﴾

أما الرابعة: البذل والعطاء بسخاء ، وذلك بإعطاء حق الله في الزكاة وغيرها بالتقرب بكل أنواع القربات مع الخوف أن لا يقبل الله منهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . ﴾

(٢٤) مفاتيح الغيب: ١٥/١٢٢.

فالخوف يبعث على الاجتهاد لإزالة أسبابه مع الحذر من التقصير والإخلال ، روى الترمذي أن عائشة ــ رضي الله عنها ــ زوج النبي ﷺ قالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال ﷺ : لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ." (٢٥).

يقول **الفخر الرازي** : وهذا الترتيب في غاية الحسن لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والصفة الثانية: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والصفة الثالثة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها. آمين(٢٦).

والإمام القرطبي : له ملحظ جدير بي أن أنقله يخص أدعياء ظنوا أنفسهم أنهم من الوجلين الخائفين وهم واهمون في حالهم.

يقول الإمام القرطبي عن الخوف وأنه في الآية صفة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق الزئيد ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله ﷺ ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف

(٢٥) رواه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة المؤمنون ٣٠٥/٥ .
(٢٦) مفاتيح الغيب: ٢٣ /١٠٧، ١٠٨ .

منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة ٨٣ .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، فمن كان مستناً فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً ، والجنون فنون" (٢٧).

*** مسألة يوهم ظاهرها الاختلاف والتناقض هي :**

أنه جاء في وله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . ﴾ الرعد ٢٨ .

جاء في هذه الآية الوصف للمؤمنين بالاطمئنان وهو السكون والراحة ، وجاء في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴾ الأنفال ٢ . الوصف بالوجل والخوف ، وهو أيضاً للمؤمنين ، فهل هناك اختلاف وتناقض ؟

الجواب : إن المؤمنين إذا علموا ما أعده الله لهم في الجنة دار الكرامة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إذا علموا ذلك استبشروا ، وفرحوا واطمأنوا ، وتهيأوا للنعيم المقيم ، وعند هذا تكون الطمأنينة والسكينة .

وعلى المقابل : إذا علموا ما أعده الله للعاصين والظالمين في النار ، التي ترمي بشرر كالقصر ، وفيها من أصناف الإهانة ما فيها : المهل ،

(٢٧) القرطبي: ٣٦٦/٧، ٥٩/١٢.

الصديد ، المقامع من حديد ، التميز من الغيظ ، الطمع في المزيد حتى يقول الله لها : هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ فهي ممزوجة بغضب الجبار ، أعاذنا الله منها .

إذا علم المؤمن ذلك خاف واقشعر واضطرب والتجأ إلى جناب الرحمن الرحيم ليقيه الشر والعذاب ، وهنا يكون الوجل .

والمؤمن الذي يحمل بين جنبيه قلباً يطمع في رحمة الله ويخشى عذابه هو مؤمن تحققت فيه غاية أوصاف المؤمنين المتقين ، وقد جمع الله ﷻ هذه الأوصاف في قوله ﷻ :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر ٢٣ .

(٣) السكينة .

من صفات القلوب السليمة " السكينة" وقد وردت في القرآن في مواضع متعددة (٢٨).

من ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ الفتح ٤ .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حدث له أهميته في حياة الإسلام والمسلمين حيث تتدخل معونة الله ونصرته لعباده الصادقين وقت الشدائد والمحن وذلك أنه لما مُنع ﷺ هو ومن معه من المسلمين من دخول مكة معتمرين كانت صفوف المسلمين تتفكك ، وتذهب ريحهم لعظم أمر احتباسهم من المشركين والحيلولة دون دخول مكة.

---

(٢٨) البقرة: ٢٤٨، التوبة: ٢٥، ٢٦، ٤٠، الفتح: ٤، ١٨، ٢٦.

وجاء عمر بن الخطاب ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: " ألست نبي الله حقاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى ، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال: قلت لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا..."

قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ ولن يضيعه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح(٢٩).

فأصل السكينة : الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات ؛ ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الغار ويوم حنين ويوم الفتح.(٣٠)

أما السكون : فثبوت الشيء بعد تحرك.

وقد فسر الضحاك السكينة: بالرحمة. وقيل السكينة: الوقار، وقيل: الملائكة ، وهي بحسب ورودها تنتظم كل هذه المعاني.

قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة(٣١).

---

(٢٩) أنظر صحيح البخاري : كتاب: الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٦٤/٥ . وكتاب: التفسير باب: هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين.

(٣٠) أنظر الراغب ٢٣٧ ، وبصائر ذوي التمييز ٢٣٨/٣ـ٢٣٩ .

(٣١) انظر القرطبي: ٢٦٤/١٦ والآية رقم ٢٤٨ البقرة.

(٤) الرأفة والرحمة.

من صفات القلب السليم " الرأفة والرحمة" وقد ورد ذلك في مواضع متعددة في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ....** ﴾ الحديد ٢٧ .

في هذه الآية المباركة بين الحق ــ تبارك وتعالى ــ أنه أودع في قلوب الحواريين وأتباعهم رأفة ورحمة ، وذلك نظير ما قيل في شأن أصحاب النبي ﷺ ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ الفتح ٢٩ .

فما هي الرحمة ؟ الجواب: الرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم .

وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة. فإذا وصف بها الباري ﷻ فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف[٣٢].

يقول **الألوسي** : الرأفة في المشهور الرحمة ، لكن قال بعض الأفاضل: إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة ما فيه جلب الخير ؛ ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح[٣٣]

(٣٢) انظر: بصائر ذوي التمييز ٥٧/٣ والوجوه والنظائر ٣٦١/١.
(٣٣) روح المعاني :١٩٠/٢٧.

وبما أن الرأفة في الأعم الأغلب مقدمة على الرحمة فقد فسرت بأنها أشد الرحمة [٣٤] ، وقد وردت الرحمة في القرآن على عشرين وجها.
وكذلك وردت الرأفة في ثلاث عشرة مرة [٣٥].

*** الخيرية.**

من صفات القلب السليم " الخيرية" قال تعالى :

﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾الأنفال ٧٠.

قال ابن عباس : إن يعلم الله في قلوبكم إيمانا وتصديقا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، نزلت في **العباس بن عبد المطلب** عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر ، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر ، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية من ذهب معه ، فلما أسر أخذت منه ، فكلم رسول الله ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه ، فأبى رسول الله ﷺ وقال له: **أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا نتركه لك.**

وكان العباس قد فدى أخيه عقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحرث ، فقال العباس : يا محمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت ؟ فقال رسول الله ﷺ: **فأين الذهب الذي دفعته لأم الفضل وقت خروجك من مكة به وقلت لها : إني لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم " ــ يعني بين بنيه ــ فقال**

(٣٤) انظر حاشية الجمل : ٤٤٣/٧.
(٣٥) انظر البصائر ٥٧/٣، والوجوه والنظائر ٣٦١/١، والفروق اللغوية ص١٩٠.

العباس: وما يدريك يا ابن أخي ؟ قال : أخبرني به ربي ، فقال العباس: أنا أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبده ورسوله، فإني أعطيتها إياه في سواد الليل ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله ، وأمر ابني أخيه عقيلا ، ونوفل بن الحرث فأسلما ، فذلك قولة تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم﴾ الأنفال ٧٠ .

يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿ إن يعلم الله في قلوبكم خيرا ﴾ يعني إيمانا وتصديقا ﴿ يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ﴾ يعني من الفداء، ﴿ ويغفر لكم ﴾ يعني ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿ والله غفور رحيم ﴾ يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ، رحيم بأهل طاعته .

قال العباس : فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألفا مكان العشرين أوقية ، وأعطاني زمزم وأحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل[٣٦].

فالخير: ضد الشر وهو ما يرغب فيه كالعقل مثلا والعدل والفضل والإحسان .

والخير يقابل به الشر مرة ، والضر مرة أخرى ، نحو قوله تعالى:﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ الأنعام ١٧. ، والخير يفسر على ثمانية أوجه[٣٧] منها الإيمان كما في الآية محل الشاهد.

(٣٦) أنظر: الألوسي ٣٦/١٠، والجمل: ٢٢٤/٣.
(٣٧) أنظر: الفيروزابادي ٥٧٢/٢، والدامغاني ٣٠٠/١.

(٦) الطهر.

من صفات القلوب السليمة الطهر ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما** ﴾ الأحزاب ٥٣ .

والمعنى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي** ﴾ ﷺ في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه ﷺ مراعاة لحقوق نسائه وحرصا على عدم إيذائه والإثقال عليه إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ، فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ، ولا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم ببعض ، إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول ﷺ ، ويمنعه ﷺ حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، والله لا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه ، وهذا أدب أدب الله به الثقلاء ، وإذا دعت الضرورة حاجة من أزواجه ﷺ فاطلبوه من وراء حاجز وحجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن.

هذا مجمل ما تحتويه الآية الكريمة.

فعلام تعود الإشارة في "ذلكم" الأولى والثانية :

* أما الأولى : فعلى اللبث الدال عليه الكلام أو الاستئناس ، أو المذكور من الاستئناس والنظر ، أو الدخول على غير الوجه المذكور ، والأول أقوى ملاءمة للسياق والسابق .

***أما ذلكم الثانية** :فالظاهر أنها إشارة إلى السؤال من وراء حجاب [٣٨]. وأطهر: أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأجلب للعفة، وأنفى للريبة وسوء الظن ، لأن العين روزنة القلب ، أي : موصل صورة الأشياء إلى القلب. فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر.

ومن هنا كان فرض الحجاب ، قال **القرطبي** : "وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها[٣٩] فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض ويتعين عندها .

فالإسلام حريص على تجنيب أبناءه مخاطر الاختلاط إبعادا لهم عن الريبة والتهمة ، وذلك أحسن للحال ، وأحصن للنفس[٤٠].

وحيث إن الآية السابقة قد احتوت على مطهرات القلوب تعليما للمسلمين وتبيينا للموحدين فإن آية سورة المائدة تبرز أوصاف قوم جنحوا إلى النفاق واستقر في قلوبهم فكتب الله عليهم عدم طهارة القلب.

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه**

---

(٣٨) الألوسي ٢٢ /٧١-٧٢ .

(٣٩) قلت : كلها عورة إلا ما خصه الدليل من الوجه والكفين ، أما صوت المرأة فالأصل فيه أنه ليس بعورة إلا إذا صحب الصوت بتكسر وترقق وتغنج وغيره ، فهنا تأتى الحرمة.

(٤٠) انظر: القرطبي ٢٢٧/١٤ ، ٢٢٨، والفخر ٢٢٦/٢٦، وصفوة التفاسير ٥٣٤/٣، والألوسي : ٧٢/٢٢.

يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم .﴾ المائدة ٤١ .

فالإشارة في "أولئك" إلى المذكورين من المنافقين واليهود ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، أي : من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما ، وإصرارهم عليهما ، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية ، كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولا ، وشرح فنون ضلالهم آخرا.

والجملة استئنافية مبينة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم، وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء(٤١).

يقول ابن القيم: فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق ، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ﷻ ورسوله ﷺ ، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان ﷺ: **" لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله "**

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه ، ولا يتداوى إلا بأدويته ، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه ، بحسب ما فيه من النجاسة ، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

---

(٤١) أبو السعود ٥٨/٢.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل ، المحرفين للحق لم يحصل لها طهارة .

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلابد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرم الله ﷻ الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ، ولا يدخلها إلا بعد طيبة وطهرة ، فإنها دار الطيبين ؛ ولهذا يقال لهم : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ الزمر ٧٣ .

أي ادخلوها بسبب طيبكم ، فالجنة لا يدخلها خبيث ، ولا من فيه شئ من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرا من نجاسته دخلها بغير معوق ، ومن لم يتطهر في الدنيا ، فإن كانت نجاسته عينيه كالكافر لم يدخلها بحال ، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة ، ثم لا يخرج منها ، والله ﷻ بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة ، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر، وكذلك الجنة فيها طهارتان طهارة البدن ، وطهارة القلب فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة ، فالذي يجتمع له الطهران يصلح للدخول على الله تعالى ، والوقوف بين يديه ومناجاته .[٤٢].

وقد حمل جمهور المفسرين قوله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر .** ﴾ المدثر ١-٤ .

حملوا الأمر بتطهير الثياب على تطهير القلب ، يقول ابن القيم: "وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق[٤٣].

---

(٤٢) انظر إغاثة اللهفان بتصرف ص٦٣،٦٤.
(٤٣) إغاثة اللهفان ص٦٢.

إذا فطهارة القلب من أعظم صفات المدح والثناء ، وعدم طهارته من أعظم أسباب الشقاء والازدراء .

(٧) الإخبات.

من صفات القلوب السليمة الإخبات ، قد ورد لفظ الإخبات في آيات ثلاث في القرآن الكريم[٤٤] ، منها قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** . ﴾ الحج ٥٢-٥٤ .

يتحدث الحق ــ جل وعلا ــ عن حملة وحيه "الرسل" الذين يتمنون إيمان الناس بربهم وإسلامهم الوجه لله ﷻ ويتحدث عن الشياطين وما جبلوا عليه من كراهية طريق الله ﷻ ووقوفهم وقفة الأعداء في وجه المرسلين ، كما قال تعالى: ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** . ﴾ الأنعام ١١٢ .

وكأن الآية جاءت تسلية للرسول ﷺ تقول له : "لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين.

(٤٤) هود : ٢٣، الحج: ٣٤، ٥٤.

ثم يبين المولى ﷻ سننه أيضا حيال مكر الشياطين وإنه يبطله ثم يثبت آياته الدالة على وحدانيته ويجعل وساوس الشياطين فتنة للمنافقين وللكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وإن الكافرين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله.

وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق الحقيق بالإيمان فيؤمنوا به فتخبت له وتخشع وتسكن قلوبهم ، بخلاف من في قلبه مرض ، وإن الله لمرشد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم .

والإخبات: نزول الخبت وهو المكان المنخفض ، وتفسيره بالإخلاص لأنه لازم للتواضع والتذلل(٤٥).

وإخبات القلوب: يكون بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص ، ولكل أوامر الله على التعميم(٤٦)، قال تعالى: ﴿ ....وبشر المخبتين بشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . ﴾ الحج ٣٤-٣٥ .

ولقد ورد عن السلف تفسيرات متعددة للمخبتين كلها ترجع إلى ما ذكرنا سابقا وإن اختلفت العبارة.

قال سفيان: هم الراضون بقضاء الله ، وقال الكلبي: المجتهدون في العبادة، وقال عمرو بن أوس: الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا(٤٧).

---

(٤٥) الشهاب: ٥١٧/٦.
(٤٦) الألوسي : ١٧٤/١٧.
(٤٧) القرطبي : ٥٩/١٢، ولمراجعة مواطن الإخبات ومعانيه انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني: ٣٢٦/٢، والفيروزابادي : ٥٢١/٢.

(٨) الخشوع.

من صفات القلب السليم "صفة الخشوع".

قال تعالى﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .**﴾ الحديد١٦ .

سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المبارك في الزهد عن الأعمش قال: " لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه واكثروا المزاح والضحك فنزلت ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا..... الآية**﴾[٤٨].

فهذه الآية بمثابة استبطاء قلوب المؤمنين فعاتبهم الله تعالى على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن الكريم.

قال **ابن عباس**ﷺ : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن الكريم[٤٩].

وهذا استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه ، والمعاتب ــ على ما قاله الزجاج ــ: طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزل خاشعا منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه.

ورأى آخر يقول إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد ﷺ ؛ لأنه قال عقيب هذا: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، أي : ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى ، إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم [٥٠].

---

(٤٨) السيوطي في أسباب النزول ص٢٨٠.
(٤٩) أنظر بصائر ذوي التمييز:٥٤١/٢.
(٥٠) أنظر القرطبي : ٢٤٨/١٧.

" ويأن" كيحن: آن يأين ، كحان يحين لفظا ومعنى"[٥١].

تخشع: أي تلين ، وتسكن ، وتخضع تضرع وتذل ، وتطمئن لذكر الله.

قال أهل التفسير: الخشوع الخوف الدائم في القلب ، ومصدر الخشوع هو القلب .

ولقد قرئت هذه الآية بين يدي أبي بكر الصديق ﷺ وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب[٥٢]

ولقد كان الصحابة الأوائل يدعون ربهم أن يهبهم خشوعا حقيقيا لا نفاق فيه ، خشوع الظاهر المطابق لخشوع الباطن.

قال بعض الصحابة: أعوذ بالله من خشوع النفاق ، فقيل : وما خشوع النفاق ؟ فقال: أن يرى البدن خاشعا والقلب غير خاشع .

وقال حذيفة: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا.

وقال سهيل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

وقيل الخشوع: الاستسلام للحكمين.

أعنى الحكم الديني الشرعي ، فيكون معناه عدم معارضته برأي أو غيره، والحكم القدري وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض والاتضاع أعني اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح.

فخوف العبد في هذا المقام يوجب خشوع القلب لا محالة ، وكلما كان أشد استحضارا له كان أشد خشوعا ، وإنما يفارق القلب الخشوع إذا غفل عن الله تعالى .

---

(٥١) أنظر الشهاب: ٩٩/٩.
(٥٢) أنظر الفخر الرازي : ٢٣٠/٢٩.

*** ومما يورث الخشوع :**

ترقب آفات النفس والعمل ومطالعة عيوب ونقائص النفس من العجب والكبر والرياء ، وضعف الصدق وقلة اليقين(٥٣).

وأختم هذه الصفة بالتحلية بكلام أديب العربية ، وفارس الكلمة **مصطفى صادق الرافعي** الذي احتوى صدق العبارة مع عمقها من خلال تعليقه على هذه الآية الشريفة فيقول:

ألم يأن: هذه الكلمة حث وإطماع وجدال وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟! إذن فالكلمة صارخة تقول:

الآن الآن قبل ألا يكون آن ، أي: البدار مادمت في نفس من العمر فإن لحظة بعد " الآن" لا يضمنها الحي.

وإذا فني وقت الإنسان انتهي زمن عمله فبقي الأبد كله على ما هو، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي " الآن" فانظر ــ ويحك ــ وقد جعل الأبد في يدك ، انظر كيف تصنع به.

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى " الآن" دون غيره على كثرة المعاني .

ثم قال ﴿ للذين آمنوا ﴾ وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقوم بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء ، لا يخشعان إلا للمادة ، وكأن إنسانهم

(٥٣) أنظر بصائر ذوي التمييز: ٥٤٢/٢، ٥٤٣. والدامغاني ٣١٦/١.

إنسان ترابي ، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان عيشه وموته ، وما تقسوا الحياة قسوتها على الناس إلا بهم ، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة ، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعا، بل ذلا ، أو ضعة ، أو رياء أو نفاقا، أو ما كان..

أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصا مخلصا محصن الإرادة ، واشترط القلب كأنه يقول: إنما القلب أساس المؤمن ، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره ، متى كان هذا القلب خاشعا لله وللحق ، فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذي شر .

ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخلق بالحبة تتسرح منها الشجرة ، فخذ نفسك من قلبك كما شئت ، حلوا من حلو، ومرا من مر.

وخشوع القلب لله وللحق ، معناه السمو فوق حب الذات ، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد.

ومتى خشع القلب لله وللحق ، عظمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها ، فيراها كبيرة وإن عمي الناس عنها ، ويراها وهي بعيدة منه بمثل عين العقاب يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى.

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء خشوعا هو شر من الطغيان والقسوة فتقيد خشوع القلب " بذكر الله" هو في نفسه نفي لعبادة الهوى ، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها ، وأما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إله ساعتها....)[٥٤].

---

(٥٤) أنظر : وحي القلم ١٩٦/١، ١٩٧.

بهذا القول الجامع للقلم السيال والفكر الموسوعي أختم صفة الخشوع كواحدة من أهم صفات القلوب السليمة ، رزقنا الله إياها اللهم آمين.

(٩) الإيمان .

من أبرز صفات القلب السليم "الإيمان" الذي عندما يكتب في سويداء القلب يفوز صاحبه فوزا عظيما.

قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ المجادلة ٢٢ .

هذه الآية تحكي نهيا عن مصادقة الكفار والمجرمين ومحبتهم ، ولو كانوا أقرب الناس كالآباء والأبناء والإخوان والعشيرة ، هذا النهي الذي جاء في صورة إخبار مبالغة في التحذير، حيث لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله ، وذلك لأن من أحب أحدا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه ، لأنهما لا يجتمعان في القلب فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان(٥٥).

وقد بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد ، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد ، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء والتسرع إلى ما دعوا إليه.

﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾ أي جمع في قلوبهم الإيمان وأثبته وخلقه (٥٦).

(٥٥) الفخر: ٢٧٧/٢٩.
(٥٦) انظر البحر: ١٣١/١٠ وصفوة التفاسير ٣٤٤/٣.

وخص القلب بالذكر لأنه موضع الإيمان[٥٧].

وكما أثبت الله ﷻ الإيمان وأن محله القلب كذلك نفى الإيمان أصله من القلب ، قال ﷻ : ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم...** ﴾ المائدة ٤١ .

وهذه الآية في الذين يقولون بلسان ظاهرهم ما ليس في قلوبهم ولسان باطنهم فينظرون خلاف ما يبطنون يتحدثون باللسان ما يسر ويكتمون في قلوبهم ما يضر ، ورغم هذا تجرى عليهم أحكام المسلمين كهؤلاء الأعراب الذين قدموا على النبي ﷺ في سنة مجدبة فأظهروا له الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ونحن قد جئناك بالأطفال والعيال والذراري ، ولم نقاتلك كما تقاتلك بنو فلان وبنو فلان يمنون على رسول الله ﷺ ويريدون الصدقة ويقولون: أعطنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ..** ﴾ الحجرات١٤ .[٥٨]

فالمنفيّ هنا الإيمان القلبي ، والمثبت الانقياد الظاهري فهما متغايران لغة، ومختلفان شرعا ، إذ الإيمان هو التصديق بالقلب بشرط التلفظ بالشهادتين والإسلام بالعكس ، والظاهر أن النظم من الاحتباك حيث حذف من الأول ما يقابل الثاني، ومن الثاني ما يقابل الأول ، والأصل " قل لم تؤمنوا ، فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم فقولوا أسلمنا ، وهذا من اختصارات القرآن.

(٥٧) القرطبي : ٣٠٨/١٧.
(٥٨) أنظر الكشاف ٥٦٩/٣ ، والعبارة للجمل ، أنظره ٢٥٨/٧ .

يقول الفيروزابادي : الإسلام في الشرع على ضربين:

١- دون الإيمان: وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم. حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، والثاني: فوق الإيمان: وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد القلب ووفاء بالفعل واستسلام لله تعالى في جميع ما قضى وقدر.

كما ذكر الله عن إبراهيم عليه السلام : ﴿**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** .﴾ البقرة ١٣١ .[٥٩].

(١٠) التآلف.

من صفات القلوب السليمة التآلف حسب منهج الله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** .﴾الأنفال٦٢-٦٣

معنى الخديعة : إرادة المكروه بالغير من حيث لا يعلم .

معنى الإلف: اجتماع مع التئام. والألفة: ضد الوحشة[٦٠].

* **حول معنى الآية :-**

وفي معرض حديث القرآن عن علاقة المسلمين بغيرهم ، بين الله تعالى أن الصلح عند جنوح العدو إليه لا مانع منه ، وإن أراد العدو بالصلح مكرا وخداعا ليستعدوا لك ﴿ **فإن حسبك الله** ﴾ فهو يكفيك فهو الذي نصرك وهو الذي شد أزرك بالمؤمنين وجمع بين قلوبهم رغم ما كان في

(٥٩) أنظر الفيروزابادي ١٨٣/٢.
(٦٠) الراغب: ص٢٠٠ ، والفيروزابادي ٢/ص٤.

العرب من الحمية الشديدة والأنفة العظيمة والانطواء على الضغينة في أدنى شيء ، فلو أن رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به ، واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا لرسول الله ﷺ وأعوانا يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج ، وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ، ثم زالت الحروب ، وحصلت الألفة والمحبة ، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه.

وفي الآية دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأراد وإنما ذلك لأن تلك الألفة والمحبة إنما حصلت بسبب الإيمان وأتباع الرسول ﷺ(٦١).

وقد استدل بهذه الآية أهل السنة على أن أحوال القلوب من العقائد والإرادات والكرامات كلها من خلق الله ﷻ وذلك لأن تلك الألفة والمودة والمحبة الشديدة ، إنما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ فلو كان الإيمان فعلا للعبد لا فعلا لله ﷻ لكانت المحبة المترتبة عليه فعلا للعبد لا فعلا لله ﷻ وذلك على خلاف صريح الآية(٦٢).

فمكان الألفة هو القلوب ومالكها ومصرفها هو الله ﷻ بنص الآية ونصوص الأحاديث، وتذييل الآية بقوله تعالى: ﴿ إنه عزيز حكيم ﴾

---

(٦١) الجمل: ٢١٩/٣.
(٦٢) الفخر: ١٩٥/١٥.

مشعر بعظيم عزته ﷻ وتصرفه في القلوب الأبية المملوءة من الحمية الجاهلية ، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم على وجه أحدث فيهم التواد والتحاب ، فاجتمعت كلمتهم وصاروا جميعا كنانة رسول الله ﷺ الذابين عنه بقوس واحدة ، والجملة كالتعليل للتأليف[٦٣].

(١١) التقوى.

من صفات القلوب السليمة "التقوى"، قال تعالى: ﴿ **ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ الحج٣٢ .

في شأن الحج الأكبر يبين المولى ﷻ أن امتثال الأمر فيما يختص بشعائر الله هو من تقوى القلوب.

ذلك: خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا [٦٤].

والتقوى: مشتقة من الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ، ويضره يقال: وقاه وقيا ووقاية، صانه.

والتوقية: الصيانة والحفظ .

والمتقي: هو من جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها ، وتوطين قلبه على ذلك ؛ فلذلك قيل له: متق.

وقد وردت التقوى في القرآن بمعان متعددة[٦٥].

وتعريفها شرعا: حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور وبترك بعض المباحات[٦٦].

(٦٣) الألوسي : ٢٨/١٠.
(٦٤) الزمخشري : ١١/٣.
(٦٥) أنظر بصائر ذوي التمييز: ٢٩٩/٢.
(٦٦) أنظر الراغب : ص٥٣٠.

والنكتة في تخصيص القلب في الآية بالتقوى ، أن حقيقة التقوى في القلب وهو منشؤها ولهذا قال ﷺ: **"التقوى ها هنا وأشار إلى صدره"**(٦٧).

أو للإشارة إلى أن التقوى تنقسم إلى قسمين: تقوى القلوب ، وتقوى الأعضاء

وتقوى القلوب: المراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق وهي المثبتة هنا، وتقوى الأعضاء المراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرا ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه.

وما في الآية شديد الشبه بقولهم : العفو من شيم الكرام ، فمتى فهم منه كونه العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم لشعائر الله من أعظم أبواب التقوى .(٦٨).

(١٢) الإنابة.

من صفات القلوب السليمة "الإنابة"، قال تعالى: ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .** ﴾ ق٣١-٣٣ .

والمعنى: وقربت الجنة للمتقين إكراما واحتفاء بهم على سبيل المبالغة، ويقال لهم هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل أواب رجاع إلى الله حافظ لعهده خائف مطيع طاعة متيقن يعلم أن الله حري بذلك ، وجاء

---

(٦٧) رواه مسلم ، كتاب : البر والصلة ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله .
والترمذي كتاب البر ، باب : ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ٢٨٦/٤ .
وانظر الفخر: ٣٣/٢٣، القرطبي : ٥٦/١٢، الألوسي: ١٥١/١٧، الجمل: ١٩٩/٣.
(٦٨) الألوسي : ١٥١/١٧ .

هذا الخائف ربه بقلب خاضع خاشع لله مقبل على طاعته ، مخلص فلا يشوب توحيده شائبة.

والإنابة كما يقول الراغب:

النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى ، يقال: ناب نوبا ونوبة، وسميت النحل نوبا لرجوعها إلى مقارها، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل .(٦٩).

ووصف القلب بالإنابة وهي الرجوع إلى الله تعالى ؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب(٧٠).

يقول الفخر: القلب المنيب هو القلب الخالي من الشرك ومن سلم قلبه من الشرك ترك غير الله ورجع إلى الله وحده فكان منيبا. ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليما(٧١).

وعلامة القلب المنيب كما يقول أبو بكر الوراق: أن يكون عارفا لحرمة الله، وموا ليا له، ومتواضعا لجلاله وتاركا لهوى نفسه(٧٢).

والرجوع الدائم لجناب الحق عين الإنابة التي هي صفة عظيمة من صفات القلب السليم.

---

(٦٩) انظر الراغب: ص٥٠٨، والفيروزابادى ١٣٢/٥.
(٧٠) الكشاف: ١١/٤.
(٧١) الفخر: ١٧٧/١٤.
(٧٢) القرطبي: ١٧/ص٢١.

(١٣) الاهتداء.

من صفات القلب السليم: الاهتداء.

قال تعالى: ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يـــهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ التغابن ١١ .

معنى الآية: أنه ما أصاب أحدا مصيبة في نفســه أو مالـــه أو ولـــده إلا بقضاء الله وقدره وعلمه سبحانه ، ومن يصدق بالله مسلما أمره له يـــهد قلبه .

*** تفصيل القول في معنى الهداية.**

يقول الراغب: الهداية: دلالة بلطف ، ومنه الهدية ، وخص ما كان دلالـــة بهديت ، وما كان إعطاء بأهديت.

فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿ **مـــن دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ الصافات ٢٣ .

قيل: إن ذلك على سبيل التهكم، والمبالغة في المعنى كقوله: ﴿ **فبشـــرهم بعذاب أليم** ﴾ آل عمران ٢١ .

وقول الشاعر: تحية بينهم ضرب وجيع .[٧٣]

**** والهداية في القرآن الكريم على أربعة أوجه:-**

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعـــارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتمالـــه كمـــا قـــال سبحانه : ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ طه ٥٠ .

(٧٣) الراغب: ص٥٣٨.

الثاني : الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنه الأنبياء وإنـزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعـالى :- ﴿ **وجعلنـاهم أئمـة يهدون بأمرنا ...** ﴾ الأنبياء ٧٣ . وهي هداية إرشاد ودلالة .

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ محمد ١٧ .

وقوله تعالى ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه**" ﴾

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقولة تعالى ﴿ **سـيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ محمد ٥ .

﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ :

والهداية في هذه الآية : أي للثبات والاسترجاع عند حلول المصـائب ، وقد عمد **البيضاوي** إلى هذا التفسير ؛ لأن المؤمن مهتد أصالة .

وقال أهل المعاني : يهد قلبه للشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء(٧٤).

وقال **ابن عباس والضحاك**: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن مـا أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه"

وقال **أبو عثمان الجنيدي**: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة(٧٥).

وقال **مجاهد**: إن ابتلي صبر وإن أعطى شكر وإن ظلم غفر.

وخلاصة القول: أن هداية القلب تعني انفساحه ورضاه بكل ما قـدره الله عامه، وما يتنزل من المكروه خاصة ، كالموت والمرض والفقر والقحط، ونظيره قوله تعالى: ﴿ **... وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبـة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ البقرة ١٥٥-١٥٦ .

(٧٤) الفخر: ٢٦/١٥.
(٧٥) القرطبي: ١٣٩/١٨.

(١٤) القوة.

من صفات القلب السليم: القوة ، قال ﷻ: ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا ﴾ الكهف١٤ .

ضمن ما قصه الله ــ تبارك وتعالى ــ في شأن أصحاب الكهف يبين سبحانه أن الفتية الذين آمنوا بربهم وبسبب تمكن هذا الإيمان من سويداء قلوبهم هان عليهم كل ما سواه من الأهل والمال والوطن ؛ لأنهم كما قال ﷻ : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ البقرة ١٦٥، فثبتهم الله على الدين ، وزادهم يقينا وذلك بالربط على قلوبهم.

*** تفصيل القول في معنى الربط :**

أصل معنى الربط: الشد ، ومنه ربط الفرس شده بالمكان للحفظ ومنه رباط الجيش.

والرباط: مصدر رابطت ، والمرابطة كالمحافظة.

والمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين ، ومرابطة النفس فإنها كمن أقيم في ثغر وفوض إليه مراعاته فيحتاج أن يراعيه غير مخل به ، وذلك كالمجاهدة ، ومنه يقال فلان رابط الجأش إذا قوي قلبه فلا يفر بل يكف نفسه بالشجاعة (٧٦).

فالمرابطة سواء أكانت حسية أم معنوية تدور حول معنى الشد والتقوية والحفظ والتمكين والتثبيت.

فيكون قوله تعالى: ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ : ثبتناها بالصبر وعدم الاكتراث بالخوف من البشر ؛ لأن الخوف يزعج القلوب عن مقارها وهم ما انزعجوا.

---

(٧٦) الراغب: ١٨٥ ؛ والفيروزابادى: ٣٢/٣.

قال الألوسي: ﴿ **وربطنا على قلوبهم** ﴾ : قويناها بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان ولم يزعجها الخوف من ملكهم الجبار ولم يرعها كثرة الكفار.

أو معنى الربط: الحبس فيكون المعنى وحبسنا على قلوبهم باليقين والصبر(٧٧).

وقد عدي الربط بعلى للإيذان بأن قوة قلوبهم بلغت في الكمال إلى أن صارت مستولية على القلوب حتى صارت كأنها علت عليها وارتفعت فوقها أي فتفيد التمكن في القوة(٧٨).

وبنحو ما قيل في الربط على قلوب أصحاب الكهف قيل في الربط على قلب أم موسى في قوله تعالى: ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾ القصص ١٠ .

فالربط على القلب هنا: إلهام الصبر كما يربط على الشيء المنفلت ليقر ويطمئن ، والمراد: لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها.

وجواب لولا محذوف دل عليه ﴿ **إن كادت لتبدي به** ﴾ أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته ، وقيل: لكادت تبدي به .(٧٩).

إذن فالربط على القلوب فضل من الله ومنة يجعله سبحانه على قلب من أحب من عباده ليقبلوا قضاء الله وقدره بنفس مطمئنة ، ونفوس أبية قصارى ما تصنع أن تقول:﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون .** ﴾ البقرة ١٥٦ .

---

(٧٧) الألوسي ٢١٨/١٥.
(٧٨) زادة: ٣٠٠/٢.
(٧٩) الألوسي: ٤٩/٢٠.

(١٥) الليونة.

قال ﷻ : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾الزمر ٢٣.

في حديثه سبحانه وتعالى عن الكتاب العزيز القرآن الكريم ، يبدأ المولى تبارك وتعالى بما يشعرنا بهيبته وجلاله فيصدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة "الله" العلم على الذات العلية الذي عندما يخبر بشيء فلا مناص من أن تنسحب على المخبر به من صفاته وهيبته ما به نوقن ونعترف له بالجلال ولما أنزله بالتصديق والعمل.

﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها** ﴾ أي : في الإعجاز والإتقان والإحكام والفصاحة وضروب البلاغة.

﴿ مثاني﴾: يثنى ويكرر فيه الوعد والوعيد والبشارة والنذارة والإحكام والمواعظ ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم أي تعلو جلودهم من هيبته وهيبة منزلة قشعريرة.

﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ اللين: ضد الخشونة. والليونة على وجهين.

الوجه الأول: في الأجساد كلين الشمع والحديد وغيره.

الوجه الثاني: في المعاني والأخلاق: كلين الطبع ولين القول. والآية التي نحن بصددها من النوع الثاني وهي تتضمن الإشارة إلى إذعانهم للحق وقبوله[٨٠].

---

(٨٠) الراغب: ص٤٥٧، والبصائر: ٤٧٢/٤.

قال صاحب الكشاف: المعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من القشعريرة.

فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت بها القلوب ثانيا.

قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينا في جلودهم(٨١).

والقشعريرة: تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف.

والليونة: الرقة والطمأنينة ، والسكون.

و بما أن الرقة ضد الخشونة والقساوة ، وقد أخبرنا الله ﷻ أن القساوة لا تكون إلا في القلوب المريضة المذنبة ، فالرقة لا تكون إلا في القلوب السليمة الصالحة.

﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء**﴾ أي : ذلك القرآن.

﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ أي : ومن يخذله الله فيجعل قلبه قاسيا مظلما فليس له مرشد ولا هاد بعد الله ﷻ .

(١٦) الفقه.

من صفات القلوب السليمة " الفقه".

قال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ الأعراف ١٧٩.

---

(٨١) الكشاف: ٣/ ٣٩٥.

يخبر الله تعالى أنه خلق للنار خلقا بعدله ، وذلك أنه لما أراد سبحانه أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **كتب الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء** ".(٨٢)

هذا الصنف الذي اختاره الله لجهنم لهم صفات حددتها الآية ، فقال عز من قائل:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها .﴾

حيث عطلوها عن الفهم فأصبحت لا منفعة منها فأصحابها لا ينتفعون بها ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا.

قال الراغب : والفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص من العلم ، وجمع فقيه فقهاء ، وهيب فقيهة والجمع فقائه . (٨٣)

والمراد بالفقه: الفهم يقال: فقه ــ بالكسر ــ أي فهم ، وغلب على علم الدين لشرفه وفقه ــ بالضم ــ إذا صار فقيها أي فاهما أو عالما بالفقه ، والفعل هنا متعد إلا أنه حذف مفعوله لإفادة التعميم ، أي : لهم قلوب ليس من شأنها أن يفهموا بها شيئا مما شأنه أن يفهم فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا فهم لم يعرفوا ما خلق لهم لما خلق له فإنهم خلقوا كذلك(٨٤).

---

(٨٢) رواه مسلم كتاب القدر باب : حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، النووي على مسلم ٤١٩/١٦ .

(٨٣) الراغب ص٣٨٤ ، والفيروزابادي ٢١٠/٤ .

(٨٤) الألوسي ١١٩/٩.

وقد احتج العلماء بهذه الآية على أن محل العلم هو القلب ؛ لأنـه تعـالى نفى الفقه والفهم عن قلوبهم بهم في معرض الذم.

واحتجوا أيضا بهذه الآية على أن آلة الفقه هي القلب.

قال صاحب البحر: وهذا دليل على أن القلب آلة الفقه والعلم كما أن العين آلة للإبصار والأذن آلة للسماع[٨٥].

* القرآن يقصر استعمال هذه المادة استعمالا مجازيا إذا كـانت اسـما ، حيث جاء وصفا للقلوب فلا نجد واحدا منها خرج عن نطـاق الاسـمية، وهو في استعماله لها استعمالا مجازيا ما فارقت وصف القلـب فـي أي موضع كذلك.

أما استعمال القرآن لها في معانيها اللغوية فذلك مقصور على حـالتين :إذا كانت فعلا، وهي كذلك في موضع واحد وهو آية الشعراء حكايـة عـن إبراهيم عليه السلام ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين .**﴾ الشعراء٨٠ .

وإذا كانت وصفا مشتقا مفردا كان أو مجموعا وهي في هذه الحالة لا ترد إلا في مقام التشريع وتيسير الأحكام .

وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآني ودعامة من دعامـات إعجازه مثيرة للدهشة ، فيها دقة وعمق نظر :-

أما الدقة: فلالتزام هذا المنهج الفريد ، وما كان هناك حرج لو خولـف ، لا في واقع اللغة ولا في طبيعة الأسلوب.

وأما عن عمق النظر : فللبحث عن سر هذا الالتزام وما روعي فيه مـن لطائف ودقائق يعز فهمها وتوجيهها[٨٦].

(٨٥) البحر ٢٢٨/٥ والألوس ٦٨/١٥.
(٨٦) أنظر خصائص التعبير القرآني ــ د. المطعني ٣١٤/٢، ٣١٥.

*** دلائل قدرة الله بصر اعتبار :-**

﴿ ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ شيئا من الحق سماع تدبر ،أولئك الموصوفون بهذه الصفات كالأنعام أي الحيوانات في عدم الانتفاع بما أعطاهم الله من منافع بل هم أسوأ حالا من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار.

﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ المستغرقون في الغفلة والتناس .

ولعل المتدبر في الآية الكريمة يدرك أن نفي الفقه والإبصار والاستماع ليس نفيا حقيقيا ، لأن المراد نف هذه الأشياء في جانب الدين.

وإلا فالغافل يفقه ويبصر ويسمع ولكن فيما دون أوامر الله ونواهيه فليتدبر.

هذه أبرز ما احتوى عليه القرآن من صفات تميز القلب السليم المستنير الفاقه الفاهم أوامر الله حق الفهم .

ولما كان بضدها تتميز الأشياء ذهبنا مباشرة إلى الصفات المميزة للقلوب المريضة ، فما هي القلوب المريضة وما تشخيص داءها من خلال القرآن الكريم هذا ما سيكون في الورقات التالية.

إن شاء الله تعالى .